الفصل الثاني

جزيرة العرب مهد الحضارات السامية

1 ـ تمهيد:

يتضح مما تقدم في الفصل الأول أن الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب إلى مختلف أنحاء الهلال الخصيب كانت من أهم العوامل في تنمية الكيان الحضارى في الشرق الأدنى، والسير به نحو التقدم والتطور في مختلف الميادين: الزراعية، والتجارية والسياسية، والعسكرية والاجتماعية، والثقافية ـ ذلك الكيان الذي انبثقت منه أقدم الإمبراطوريات وأعظمها مما عرفه العالم في تاريخ البشرية، أى الإمبراطوريات الساميات الأربع: الأكدية والبابلية، والأشورية، والكلدانية، ثم تلتها الممالك العربية التي أسسها اليمانيون ثم الأنباط فالتدمريون والغساسنة والمناذرة والكنديون وأخيرا الإمبراطورية الإسلامية التي عمت الشرق كله (الأدنى والأوسط والأقصى) وشمال أفريقيا، هذا عدا دولة الأندلس العربية في أوربا، فالجزيرة العربية إذن هى بحق مهد الحضارات السامية، فقد قذفت بأبنائها الأشداء إلى ما وراء الصحارى بحكم سنة تنازع البقاء ليحققوا لأنفسهم العيش الرغيد في الأوطان الجديدة. وبفضل تشابك مصالح هذه القبائل بعضها ببعض وتفاعل نشاطها في سبيل الحصول على حياة أفضل توطدت أسس الحضارة السامية الكبرى التي كان لها شأن كبير في التقدم البشرى.

2 ـ وصف شبه جزيرة العرب:

ولابد قبل أن نبحث دور جزيرة العرب في بعث الحضارة الإنسانية وتقدمها وعرض آراء العلماء والباحثين في ذلك، من تقديم نبذة عن صفة جزيرة العرب وتكوينها.

تعد شبه جزيرة العرب، أو جزيرة العرب كما اعتاد علماء العرب تسميتها، أوسع شبه جزيرة في العالم حيث تبلغ مجموع مساحتها حوالى مليون ميل مربع (حوالى مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع) فيبلغ طولها على ساحل البحر الأحمر 1200 ميل وأقصى عرضها بين اليمن وعمان 1300 ميل [1]. يحدها البحر الأحمر من جهة الغرب وخليج عدن وبحر العرب من الجنوب وخليج عمان والخليج العربى من الشرق والشمال الشرقى والجمهورية العراقية والمملكة

(1) " دائرة المعارف البريطانية "، طبعة 1965، م2، ص 116.

الأردنية الهاشمية من الشمال، وهى ترتبط بأفريقيا بطريق شبه جزيرة سيناء كما أنها تتصل بها عبر البحر الأحمر أيضا، أما اتصالها بآسيا فطريق البحر مفتوح أمامها. وتضم شبه جزيرة العرب المملكة العربية السعودية بما فيها الحجاز ونجد وعسير والإحساء، ثم اليمن وحضرموت وعمان ومشيخات عمان وقطر والبحرين والكويت، ورغم بعد جزيرة سوقطرة من الساحل الجنوبى الشرقى من الجزيرة (220 ميلا) فإنها تعتبر جزءا من شبه جزيرة العرب لأنها ترتبط بها سياسيا وعرقيا[1].

وتتكون أرض الجزيرة في قسمها الغربى من مرتفعات تشرف على طول البحر الأحمر، ثم تأخذ هذه المرتفعات بالانخفاض تدريجيا نحو الشرق، فهناك سلسلة من المرتفعات متصلة بعضها ببعض، تمتد من سورية وفلسطين شمالا حتى اليمن جنوبا بموازاة البحر الأحمر وتقترب منه في مواضع عديدة، ويبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم، أما أقصى ارتفاع لها فيبلغ 12336 قدما ويقع في اليمن وتعرف هذه المرتفعات باسم جبال السراة أى " أعلى كل شئ "[2]. وتمتد هذه المرتفعات من اليمن بمحاذاة الساحل متجهة نحو الشرق حتى تنتهى في عمان حيث ترتفع هناك قمم الجبل الأخضر إلى ما يتراوح بين تسعة آلاف قدم وعشرة آلاف قدما. وتكون هذه السلاسل من المرتفعات حاجزا يمنع الأبخرة المتصاعدة من البحر الأحمر وبحر العرب من اجتيازها نحو الأراضى الصحراوية وراء سفوح المرتفعات على طول امتدادها وبذا تحول دون سقوط الأمطار بوفرة في أواسط بلاد العرب [3].

وفى وسط الجزيرة تقع منطقة نجد وهى هضبة ارتفاعها زهاء 2500 قدم يقع فيها جبل شمر وجبل طويق جنوبا، ومدينة الرياض قريبة من جبل طويق تقع في الجبهة الشمالية الشرقية منه، وفى هذه المنطقة ينابيع عديدة للمياه تحت طبقات الرمال والصخور تستغل في الزراعة.

وتتكون أغلب أراضى شبه جزيرة العرب من صحار وسهول تتخللها واحات، أرضها خصبة تستغل في الزراعة لتوفر المياه فيها، وتقسم الأراضى الصحراوية إلى قسمين: القسم الأول ويشتمل على الأراضى البركانية، ويقال لها

(1) " نفس المرجع السابق "..
(2) الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 87.
(3) " المرجع السابق "، ص 103.

حرة وجمعها حرار، وهى تكثر في الأقسام الغربية من شبه جزيرة العرب وتمتد حتى تتصل بالحرار من بلاد الشام في منطقة حوران، والحرار موجودة أيضا في المناطق الوسطى من شبه الجزيرة وفى المناطق الجنوبية الشرقية من نجد، وهى موجودة أيضا في المناطق الجنوبية الغربية قرب باب المندب وعند عدن، ومن أهم مناطق الحرار هذه المدينة المنورة وخيبر. وبعض أراضى الحرار خصبة وفيها مياه وافرة مما يساعد على استغلالها في الزراعة. وقد كان لكثرة الحرار وانتشارها في شبه جزيرة العرب بعض التأثير في التغييرات المناخية التي طرأت عليها حتى أصبحت على ما هي عليه الآن من الجفاف وسيأتى الكلام عن ذلك. ومما يذكر في هذا الصدد أن ثوران البراكين في مناطق آسيا العربية قد انقطعت منذ القرن الثالث عشر الميلادى فكان آخر حدث بركانى وقع في سنة 654 هـ (1256 م) في الحجاز [1].

أما القسم الثانى فيشتمل على الدهناء وهذه تتكون من مساحات شاسعة من الأراضى الرملية تمتد من الجوف شمالا إلى حضرموت ومهرة جنوبا وإلى اليمن غربا وعمان شرقا، وفيها كثبان من الرمال على ارتفاعات مختلفة تنتقل غالبا مع الرياح، وفى هذه الأرضين مياه جوفية يمكن الحصول عليها بحفر الآبار فيها. وتسقط الأمطار الموسمية في بعض أجزاء هذا القسم فتنبت فيها الأعشاب في موسم الربيع ثم تجف، وتكثر في هذه المناطق العواصف الرملية وترتفع درجة الحرارة فيها في الصيف، وقد عرفت الأقسام الجنوبية من الدهناء عند الجغرافيين المحدثين باسم الربع الخالى لخلوها من سكنى الناس وكانت تعرف بمفازة صيهد. وتقع في الجنوب الغربى من الربع الخالى منطقة رملية واسعة تعرف باسم منطقة الأحقاف اقترن اسمها في التاريخ العربى بقوم عاد كما أنه ذكرت إلى الجنوب الغربى من الربع الخالى في مشارق اليمن منطقة الوبارين وهى من أراضى الدهناء ما بين نجران وحضرموت كانت عامرة بكثرة الزروع والمراعى والمياه فيها إلا أن تبدل جو بلاد العرب قضى على ذلك العمران.

وهناك مناطق يطلق عليها اسم " النفود " وهى مناطق رملية واسعة ذات كثبان مرتفعة وسلاسل رملية متموجة كانت تعرف باسم الدهناء ثم غلب عليها اسم النفود. وهناك منطقتان مشهورتان من مناطق النفود هما صحراء النفود الكبرى في الشمال تقع بين الجوف وتيماء وصحراء الدهناء (النفود الصغرى)

(1) " المرجع السابق "، ص 90.

بين الإحساء والرياض.

وفى شبه جزيرة العرب عدة أودية تخترق أراضيها وهى تنبع من المرتفعات الجبلية فتجرى فيها السيول في موسم الأمطار ثم تفيض مياهها في الرمال فتكون بعض الواحات التي يزرع عليها، وأكبر هذه الأودية وادى الرمنة ووادى الحمض ووادى حنيفة ووادى الدواسر، للأول منبعان أحدهما يبدأ عن " حرة خيبر والثانى عند مرتفعات نجد الجنوبية فليتقيان قرب " عنيزة " ثم يسير مجراهما الموحد باتجاه الشمال الشرقى حتى القصيم حيث يسمى بعد ذلك " الباطن " وهنا يتفرع إلى فرعين يخترقان منطقة صحراوية يسير أحدهما في النفود إلى ان يصل موضعا قرب البصرة. ويبلغ طول هذا الوادى نحو 950 كيلو متر.

أما الوادى الثانى (وادى الحمض) فيبدأ من جنوب حرة خيبر ويتجه غربا حتى يصل إلى المدينة المنورة، وبعد أن تتصل به عدة روافد تنحدر إليه من الجبال يصب في البحر الأحمر في صوب قرية الوجه ويبدأ وادى حنيفة عند مرتفعات جبل طويق من الجهة الغربية الشمالية فيشق مجراه قلب العارض وبعد أن تلتقى به عدة روافد ينحدر صوب الخليج العربى ويصب فيه جنوب سواحل قطر.

أما وادى الدواسر فيتكون من بعض الأودية المنحدرة من سلاسل جبال اليمن ويتجه نحو الشمال الغربى حيث تفيض مياهه في الرمال في مواضع عديدة فيكون بعض الواحات التي يزرع عليها. ويعتقد أن هذه الأودية كانت في الأزمنة القديمة أنهارا كبيرة إلا أن الجفاف الذي حل بالبلاد أثر تأثيرا كبيرا في طبيعة شبه جزيرة العرب مما أدى على انقطاع المياه الدائمة عنها فصارت تعتمد على مياه سيول الأمطار في موسم الشتاء والربيع فقط.

ويقسم سكان جزيرة العرب إلى قسمين: بدو وحضر، والبدو هم الرحل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر يبحثون عن مساقط الأمطار والمراعى أو منابع الماء، لذلك كانت مساكنهم الخيام والجمال عونهم الكبير في تنقلاتهم، أما مادة حياتهم فهى الأغنام بالدرجة الأولى يأكلون لحمها ويصنعون الدهن من حليبها كما يصنعون من أصوافها خيامهم وملابسهم، هذا عدا الإبل التي تكون ثروة البدو بوجه عام فهى تستخدم في نقل البضائع التجارية عبر الصحارى عدا الاستفادة من لحمها وحليبها ووبرها.

أما الحضر فهم سكان المدن والقرى ومادة حياتهم الزراعة والصناعة والتجارة وهى من حرف الاستيطان والاستقرار. وتقوم هذه المدن والقرى في دوائر الجزيرة العربية داخل شريط ضيق في الغالب يمتد مع السواحل المحيطة بالجزيرة حيث تسقط الأمطار بصورة دائمة ومنتظمة، وقد استطاع الحضر أن يكونوا دولا لها ملوك ونظم سياسية بينما عاش البدو في نظام القبيلة، وكانت اليمن في جنوب الجزيرة من أقدم الممالك العربية في جزيرة العرب وقد اشتق اسمها من اليمن كما يرى البعض أنها بلاد يمن وبركة، وتتمتع شبه جزيرة العرب بقدسية روحية وتاريخية فهى مهبط الوحى وموطن الرسل والأنبياء، ففى لغة أهل الجزيرة نزل القرآن الكريم رحمة للعالمين.

وقد قسم بطليموس القلوذى الذي وضع كتابه " جغرافيا " في القرن الثانى بعد الميلاد إلى ثلاثة أقسام من الناحية الجغرافية هى: العربية الصحراوية، والعربية الحجرية، والعربية السعيدة. ويراد بالأولى القسم الشمالى من بلاد العرب، وبالثانية شبه جزيرة سيناء، وبالثالثة الحجاز ونجد واليمن وما جاورها. أما العرب فقسموا بلادهم إلى خمسة اقسام هى: الحجاز، وتهامة، ونجد، واليمن، والعروض التي هى اليمامة والبحرين وعمان.

3 ـ البداوة أساس الحضارة:

وقد يسأل سائل: وهل كان بإمكان سكان الجزيرة البدو الذين احتضنوا رمال صحاريهم وبواديهم أن يؤسسوا الإمبراطوريات والممالك؟!... ويكفى هنا أن نرجع بالقارئ إلى أقرب دور تاريخ منا، أى دور الإمبراطورية الإسلامية، فمن أسسها؟ ألم يكن بدو الجزيرة هم الذين قاموا بتشييد هذه الإمبراطورية العظيمة الواسعة؟ فبدو الجزيرة هم هم لم يتغيروا، فإذا استطاعوا قبل حوالى أربعمائة وألف سنة أن يقيموا مثل هذه الإمبراطورية التي شملت العالم الإسلامى الواسع، فهذا وحده دليل جلى على أنهم ورثوا هذه الكفايات عن تراثهم الأصيل الذي لم يزل حتى يومنا هذا يتمتع بنفس الحيوية في بعث الروح القومية العربية، والتاريخ يعيد نفسه. وهل كان النورمان الذين اجتاحوا أوربا وطبعوها بطابعهم أكثر تمدنا من جزيرة العرب؟.

وأروع ما كتب في هذا الباب، عرض ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، إذ يرى أن البداوة هى أصل الحضارة والعمران والأمصار مدد لها، وأن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها، كما يرى أن تطور البداوة إلى

المدنية أمر طبيعي، والسبب في ذلك أن البداوة أقرب إلى الفطرة وتتميز بخصائص خاصة بها بعيدة عن الترف والشهوات كما تتصف بالشجاعة والعصبية، فيشبه ابن خلدون بالوحشية ويزعم أن الأمم المتوحشة، أى التي تعيش عيشة البداوة، هى التي تكون المدنية والحضارة بما تتمتع به من حيوية وعصبية وشجاعة وهى أقدر على التغلب على الصعاب لأن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم.

فيقول: " لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه لا جرم كان هذا الجيل الوحشى أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدى سواهم من الأمم، بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار فكما نزلوا الأرياف وتفننوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر إذ زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها، وكذلك الآدمى المتوحش إذا أنس وألف وسببه أن تكون السجايا والطبائع إنما هى عن المألوفات والعوائد وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية ".

وفى رأى ابن خلدون أيضا أن لدى الأمم والدول أعمارا طبيعية كما للأشخاص فبعد أن تهجر البداوة والخشونة وتنغمس في الملذات والشهوات وتتخذ الدعة والراحة والرقة مألفا وخلقا تأخذ مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها ".

ويمضى ابن خلدون فيقول: " وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فإن غالب جندها الموالى من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرسانا وجندا فيكونوا أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة الموحدين في أن

أفريقيا فإن صاحبها أكثر ما يتخذ أجناده من زناته والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين على الترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم ".

لذلك فليس من غريب الاتفاق أن يؤكد توينبى المؤرخ المشهور في هذا العصر النظرية ذاتها بعد ابن خلدون بخمسمائة عام فيرى أن الجفاف الذي حل بالجزيرة العربية وأدى إلى تحويلها إلى صحار قاحلة وحمل أهلها إلى تطوير حياتهم إلى خشونة البداوة، كان " عاملا في نشوء الحضارات المهمة في وادى الرافدين، ويعد الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الآخذة في الجفاف، فانتقلت تلك الجماعات البدائية من طور الصيد وجمع القوت في العصور الحجرية القديمة إلى طور إنتاج القوت أى الزراعة وتدجين الحيوان وإلى طور الحضارة أيضا " (1).

ومثل ذلك يؤكد العلامة ول ديورانت: " إن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة، وتستقر في سطحها ومن تحتها، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح، أو بالهجرة الجماعية أو بالتوالد غير المحدود، وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة في البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام أن تقضى على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده، ولا تعترف قط بهزيمتها، بل تظل قرونا طوالا صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر " (2).

وفى بحث لجرجى زيدان بعنوان: " البداوة غذاء الحضارة " يقول: " إن الحضارة تبعث على الرخاء والترف والانغماس في الملذات والأركان إلى الراحة فتذهب تلك القوة وتؤول إلى الضعف، والبداوة تقوى الأبدان وتربى النفوس على الاستقلال، فلذلك كان أهل الحضارة أو المدن يستعينون بأهل البداوة أو الجبال فيما يحتاج إلى جهد، حتى إذا شاخت الدولة المتحضرة خلفها جيرانها البدو أو الجبليون بالفتح أو نحوه وقاموا مقامها واقتبسوا عادات أهلها وديانتهم، ثم لا يلبثون أن يدركهم الهرم يخلفهم سواهم من أهل البادية سنة الله في خلقه " (3).

4- جزيرة العرب مهد الحضارات السامية:

(1) سومر، م5، 1949، ص 130.
(2) " قصة الحضارة "، الترجمة العربية، ج2، ص 264 - 265.
(3) " العرب قبل الإسلام "، ص 34.

لقد أجمع العلماء على أن الأكديين والعموريين والكنعانيين والفينيقيين والقرطاجيين والأراميين والأشوريين والعمونيين والموآبيين والأدوميين والعبريين والنبطيين والعرب والصابئة والأحباش يعدون من الأقوام السامية التي تشترك في أسر اللهجات السامية. وقد اعتبر البعض المصريين من الأقوام السامية في الأصل وأن وطنهم الأصلي إنما هو جزيرة العرب هاجروا منها إلى أفريقيا واختلطوا هناك بزنوج وادى النيل. وقد اختلف العلماء في تعيين وطن الساميين الأصلي، فبعضهم اعتبر بابل مهد الساميين والبعض الآخر أواسط آسيا أو أفريقيا أو عمورو[1]، إلا أن هناك شبه إجماع لدى العلماء في الوقت الحاضر على أن شبه جزيرة العرب هي مهد الساميين والحضارة السامية لأن قرائن عديدة دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح إلى ان جزيرة العرب هي مهد الحضارات السامية ووطن الساميين الأوائل. وقد أيدت جمهرة من العلماء والباحثين هذه النظرية، كان من أوائلهم " سبرنكر " الذي أكد عام 1861 أن أواسط بلاد العرب، ولاسيما منطقة نجد، هو المكان الذي يجب أن يكون موطن الساميين، وهو الذي جهز الهلال الخصيب بالسكان وطبعه بهذا الطابع السامى. فمن هذا المخزن خرجت طبقات من البشر بعضها فوق بعض، وسكنت في هذه الأرضين التي اتسمت بالسمة السامية، ولا تزال تحتفظ بسمتها هذه حتى اليوم [2].

ووافقه في ذلك المستشرق " سايس " (Sayce) الذي يجزم بأن " جميع الروايات والآثار السامية تشير إلى أن جزيرة العرب هي الوطن الأول الذي ظهر فيه الساميون " [3].

كما أيد هذه النظرية آخرون من العلماء أمثال " شرادر " (E.Schrader)

(1) G.A Barton, "Semites", Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol. 11, pp. 378 - 384.

(2) A.Sprenger, "Das Leben und Lehre des Mohammad", Berlin 1861, pp. 241 ff; "De Alte Geographie Arabiens", Bern, 1875, p. 293.

(3) Sayce, "Assyrian Grammar", Oxford, 1872, p. 13; Barton, "Semitic and Hamitic Origins", p.4.

(1)

و " دى غويـــــه " (De Goeje) (1836 - 1909) [2] و " غـــــريم " (H.Grimme)
(1868 - 1956) (C.brockelman) " كارل بروكلمان " [3] و (1942 - 1964)
[4] و " كينغ " (L.W.King) [5] و " مايرز " (J.L. Meyers) [6] و " وكوك " (Cook) [7] و " ديتلف نيلسن " (D.Nielsen) [8] و " رايت " [9] (Wright)
ومن القائلين أيضا بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين " روبرتسن سميث " (R.Smith) [10] و " هومل " (Hommel) [11]، و " وكونتنو " [12]، كما يقول

---

(1) E. Schrader, ZDMG, XXVII (1873), pp. 397 - 420; "Die Adstammung der Chaldaer und die Ursitz der Semiten".
(2) De Goeje, "Het Vaderland der Semitiche Volken", Leyden, 1882; Barton, "Semitic…", p. 5.
(3) Wright, "Comparative Grammar of the Semitic Languages", p.8.
(4) "Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitichen Sprache", Berlin, 1908, I, p.2.
(5) L.W. King, "History of Sumer and Akkad", London, 1915, p. 119.
(6) J.L.Meyers, in Cambridge Ancient History, Cambridge, 1923, I, p. 38; Barton, "Semitic…", p.6.
(7) S.A. Cook, in Cambrige Ancient History, I, p. 192 ff.
(8) Nielson, "Handbuck der Altarbischen Aiterumskunde", I Kopenhagen, Paris, Leipzig, 1927, pp. 47, 55.
(9) Wright, "Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages", Cambrige, 1890, p. 8.
(10) R. Smith, "Kinship and Marriage in Early Arabia", p. 178
انظر أيضًا: الهلال، نيسان 1906، ج7، سنة 14، ص 399.
(11) Hommel, "Ethnologie and Geographie des Alten orient", Muenchen, 1926, p.10.
انظر: الدكتور جواد علي " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 151 - 153؛ " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، 231 - 232.
(12) Contenau, "Manuel d'Archeologie Orientale; la civilization d'Assure et de Babylone" p.43.

" فليش " [1] أن هذا الافتراض ليس بعيد الاحتمال.

وقد بسّط هذه النظرية مؤيدًا إياها العلامة " ديسو " في كتابه " مونتوغرمرى " في كتابه " ولوج العرب سورية قبل الإسلام " [2]، وممن أيدها أيضًا الباحث المعروف " مونتوغرمري " في كتابه " الجزيرة العربية والتوراة " [3]، وكذلك ماغدونالد في بحثه عن الأدب العبرى [4]. وأما المسئول عن الإفاضة في هذه النظرية والتحمس لها بثقة أكثر من أى شخص آخر فإنه العالم الألمانى " وينكلر " (Hugo Winckler) الذي يذهب إلى أن " جزيرة العرب هى المهد الأول للساميين، وأن البابليين والكنعانيين والأراميين خرجوا منها على موجات متتالية على غرار الغزو الإسلامى في القرن السابع الميلادى [5].

ويؤكد خبير الآثار الأستاذ طه باقر أن النظرية القائلة " بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين ما تزال تحتفظ بقوتها وأرجحيتها بالرغم من تردد بعض الباحثين " [6].

ومن المؤيد لهذا الرأى الدكتور " ويلفنسون " فيقول: " كتابه " تاريخ اللغات السامية " (ص 5 - 6) ما نصه: " والذى يمكننا أن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأمم السامية التي علمنا أخبارها وأسماءها كانت من نزوح جموع سامية من أرض الجزيرة إلى البلدان المعمورة الدانية والقاصية في عصور مختلفة، وأقدم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة، وقد أسست تلك الجموع ملكا عظيما في بقعة الفرات كان لها من الحول والطول حظ وافر في عصور شتى، وكذلك هاجرت البطون الكنعانية والأرامية تاركة بلاد العرب وكان لجوادتها أثر عظيم " حياة العالم القديم ".

ولم تقف هذه الهجرات العربية عند العراق وسورية وفلسطين بل جاوزتها

(1) Fleisch, "Introduction a l'etude des langues semitiques", pp. 24 - 25.

(2) Dussaut, "La penetration des Arabes en Syrie avant 1"Islam".

(3) J.A. Montgomery, "Arabia and the Bible", 1934.

(4) D.B. Macdonald, "The Hebrew Literary Genius, Princeton University Press, 1933.

(5) رينه ديسو، " العرب في سورية قبل الإسلام "، ص 20.

(6) سومر 1949، ج2، ص 132.

إلى مصر أيضا فقد توغلت قبائل سامية جاءت من ناحية الجزيرة في بلاد النيل وبسطت سلطانها على مصر وكونت في تاريخها الأسر الحاكمة المعروفة بالهكسوس. وكذلك كانت الهجرة العربية بعد ظهور الإسلام إلى جميع أطراف العالم القديم آخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الأرض وهزت العالم بأسره وكان من نتيجتها أن تغيرت أحوال أمم كثيرة في آسية وأفريقيا وانقلبت فيها كل جوانب الحياة من سياسية واجتماعية وعمرانية، بل لا تزال الهجرة من الصحراءإلى البلدان الدانية والنائية مستمرة بأخطارها الشديدة وعواقبها العظيمة والتاريخ دائما يعيد نفسه ".

وفى رأى فيليبى الذي قام بدراسات مسهبة لأحوال جزيرة العرب، أن أقسام المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب ومن ضمنها اليمن هى الوطن الأصلى للشعوب السامية، فهى مهد العرب ومهد السامية، منها نزحت الموجات البشرية بعد اضطرارها إلى ترك أوطانها القديمة بسبب الجفاف الذي حل بها. وهو يعبر عن رأيه هذا بقوله: " إننى أعتبر بلاد العرب الجنوبية هى الوطن الأم لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم اللغة العربية. وكان هؤلاء الساميون بالتأكيد عربا يتكلمون العربية وقد هاجروا من أوطانهم الأصلية في جنوب الجزيرة العربية بعد اضطرارهم إلى ترك منازلهم القديمة، بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليثى [1] والتوجه نحو الشمال إلى أطراف الهلال الخصيب في موجات متعاقبة، وقد سلكوا الطرق البرية والبحرية حتى وصلوا إلى العراق وسورية وفلسطين، هاجروا وقد حملوا معهم كل ما يملكون من أشياء ثمينة، حملوا معهم آلهتهم وأهمها الإله القمر (سين) وحملوا معهم لغتهم ثم مدوناتهم الثقافية في الأحقاب التالية، وقد استمرت هذه الهجرات عبر آلاف السنين تارة بطيئة وتارة أخرى سريعة الحركة حتى تمكنت إحدى الزمر السامية أن تثبت أقدامها في السهل الخصيب من أواسط بلاد ما بين النهرين " [2].

ويؤكد الخبير الأنثروبولوجى المعروف الدكتور هنرى فيلد المستر فيليبى فيما ذهب إليه من أن جنوب الجزيرة كانت الوطن الأصلى للأقوام التي هاجرت

(1) يقصد به العصر الحجرى القديم البالبوليثى الأعلى الذي يبدأ حسب تقدير العلماء قبل حوالى 35 ألف سنة.

(2) فيليبى، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، الإسكندرية، 1947، ص 9 وما بعدها.

من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، فيقول: " أن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان منذ العهد النيوليثى [1]، وقد هاجر قسم من الناس إلى عمان والخليج، وهاجر قسم آخر بطريق باب المندب إلى الصومال وكينيا وتنجانيقا وهاجر فريق ثالث بطريق مأرب ونجران إلى شبه جزيرة سيناء وفلسطين والأردن. وهذا وقد عثر السياح على عدد كبير من الكهوف في الحجاز وفى اليمن وفى جنوب الجزيرة اتخذها أسلاف سكان شبه الجزيرة بيوتا لهم التجؤوا إليها وعاشوا أمدا طويلا فيها.

كما يؤيد العلامة ول ديورانت هذا الرأى نفسه فيقول:

" إن مهد الجنس السامى ومرباه جزيرة العرب، فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو الإنسان شديدا عنيفا، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق، تدفقت موجة إثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدى البأس لا يهابون الردى، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم، فكان لابد لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكانا خصبا ظليلا يعولهم ويقوم بأودهم، فأما من بقى منهم في بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو، وأنشؤوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصراحة خلقية، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة، والشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهم قربانا للآلهة. وظلوا وقتا ما يسيطرون على التجارة مع الشروق الأقصى، تتكدس في ثغورهم غلات جزائر الهند، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل. وشادوا في قلب جزيرتهم العربية المدن والقصور والهياكل، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجئ إليها ورؤيتها، وقد بقى هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم، محافظين على عاداتهم وأخلاقهم، متمسكين بآرائهم، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا في أيام كيوبس وجوديا، ولقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتفنى من حولهم، ولا تزال أرضهم ملكا لهم يعضون عليها بالنواجد، ويحمونها من أن تطأها الأقدام الدنسة أو تنظر إليها الأعين الغريبة " [2].

وتأييد لهذه النظرية يقول الدكاترة حتى وجرجى وجبور: " إن معظم العلماء

(1) أن العصر النيوليثى هو العصر الحجرى الحديث ويحدد العلماء زمنه في الفترة بين سبعة آلاف وخمسة آلاف سنة قبل الميلاد.

(2) " قصة الحضارة "، الترجمة العربية، ج2، ص 30 9 - 310.

اليوم يؤيدون النظرية القائلة بأن بلاد العرب هى مهد الجنس السامى ويدعمونها بالحجج التالية:

" إن معظم سطح الجزيرة صحراء تحيط بها حافة ضيقة من الأرض التي تصلح للسكن ويحيط البحر بهذه الحافة نفسها فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة احتمال الأرض لهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوى يعيشون فيه ولم يكن باستطاعتهم التوسع في وسط البلاد وهو صحراء ولا اجتياز البحر حين لم يكن لهم، في تلك الأزمان، الوسائل لذلك، فلم يبق أمامهم إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربى من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرع عند شبه جزيرة سيناء.

4- جزيرة العرب هى مهد الحضارات السامية:

" وقد اتخذت الهجرة تحت راية الإسلام التي تمت في وضح التاريخ حجة يعتمد عليها القائلون بأن جزيرة العرب هى موطن الساميين الأصلى. وهم يعززون قضيتهم في ملاحظتهم أن العرب قد احتفظوا بميزاتهم السامية الخالصة وأظهروها بوضوح أكثر من بقية أعضاء تلك المجموعة الجنسية وأن اللغة العربية هى أقرب ما تكون إلى ما يرتأيه علماء اللغات بشأن مزايا اللغة السامية الأم وشكلها البدائى.

" إن هجرة جماعات بشرية، جملة وزرافات، من الصحراء وانتقالهم من حياة الرعى إلى الزراعة والاستيطان الدائم إنما يشكلان في الواقع ظاهرة عامة في الشرق الأدنى نستطيع بواسطتها أن نفهم تاريخه الطويل الملئ بغرائب الأحداث. وأن الطريقة التي يحاول بها شعب يميل إلى الهجرة أن يفرض نفسه على شعب تأصلت جذوره في أرضه لتفسر لنا في الغالب كيف أن الغزاة يقتبسون إلى حد ما من الأمة المغلوبة أهم مميزات الحضارة فيها ويكسبون هذه الأمة شيئا من الدم الجديد فيها ولكنهم قلما يستطيعون أن يقضوا عليها أو يستأصلوا جذورها، وهذا بعينه ما جرى في الشرق الأدنى القديم الذي يعتبر تاريخه إلى حد ما نزاعا متواصلا بين الحضر من سكان الهلال الخصيب وبين البدو الغزاة الذين كانوا يحاولون أن يعتصبوا الأرض منهم. ولقد أصاب من قال: ليست الهجرة والاستعمار إلا نوعا مخففا من الغزو والفتح، ويجب أن نلاحظ بشأن هذه الهجرات أنه في كل حالة تقريبا كانت اللغة السامية أقوى على البقاء

وقد كان هذا عاملا بعيد الأثر " [1].

ومن بين الباحثين المتخصصين الذين أكدوا الدور الفعال الذي لعبه الساميون العرب من شبه جزيرتهم العربية في التطور السياسى والحضارى لمنطقة الشرق الأدنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر السامى العربى، العالم الألمانى الدكتور أنطون مورتكات (A. Moortgat) إذ يقول: " لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات وحسب بل مصدر الإشعاع الدينى الذي أنار الأرض بكاملها... ولم يقتصر الإبداع الشرقى على اختراع الأبجدية وحدها بل تعداها ليشمل الكتابة أيضا، أى كيف على الإنسان أن يكتب وبالتالى يكون الشرق قد أوجد أعظم وسيلة لتدوين التاريخ... وقد ساهم في صنع هذا التاريخ سكان مناطق الشرق الأدنى وهم شعوب الصحراء العربية وكنعان والساحل الفينيقى، وجبال آسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين، ومنطقة الأراضى الرسوبية على الخليج العربى، ثم شعوب جبال إيران وهضابها. وتختلف هذه الشعوب عن بعضها دما وعرقا. إلا أن لجميعها هدفا واحدا هو الوصول إلى أراضى الهلال الخصيب، وبالتالى التمكن من السيطرة على بلاد جنوب ما بين النهرين، بلاد السومريين، التي أول ما عرفت الحضارة المزدهرة عند مطلع الألف الثالثة ق.م، وأقدم هذه الشعوب هى أسرة الشعوب السامية القادمة من الصحراء العربية وبادية الشام، التي دخلت أراضى الهلال الخصيب على شكل موجات عديدة متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة. وبالمقابل تنتسب الشعوب الجبلية أو على الأقل طبقتها القائدة، إلى المجموعات الهندية الجرمانية، التي وجهت اهتمامها إلى المنطقة وتحركت نحوها في الألف الثانية والأولى ق.م، كما ونجد هناك شعوب أخرى ساهمت في صنع تاريخ هذه المنطقة كالسومريين مثلا الذين لا نستطيع معرفة أصلهم، ذلك لأن لغتهم بعيدة عن أن تكون مرتبطة باللغات المعروفة حتى الآن " [2].

ويؤكد الباحثة يونغ كويلر (Cuyler Young) [3] هذا الرأى بقوله: " ولا

(1) الدكاترة حتى وجرجي وجبور، " المطول في تاريخ العرب "، ج1، ص 10 - 13.
(2) موركات (الدكتور أنطون)، " تاريخ الشرق الأدنى القديم "، ص 10 - 12.
(3) يونغ كويلر، " الشرق الأدنى - مجتمعه وثقافته "، الترجمة العربية، ص 4 - 5.

أظن أن واحدا من القراء يشك في أن غربى آسيا كان منذ الأزل البعيد مهدا للحضارة "، وبعد أن يتطرق إلى مدنيات الشرق ومختلف الموجات البشرية التي انحدرت إليه يتابع قائلا: " وكانت العناصر السامية أقوى وأعم العناصر الإنسانية التي عاشت في هذه المنطقة... وقد تميزت هذه العناصر عن سواها بثقافة ذاتية، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث كانت تعيش في بعض أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل خمسة آلاف من السنين. ومنذ ذلك التاريخ لم يلبث هؤلاء الساميون أن نزحوا في موجات متلاحقة إلى أراضى الهلال الخصيب في هذه المنطقة أثناء العصر البرونزى، وطبعها بطابع متميز في كل مظاهر الحياة الذوقية والعقلية والعملية. وقد ظل الساميون طول عصور ازدهارهم هذه معينا لا يجف يحمل الثقافة والحضارة من الشرق إلى الغرب " (1).

ويذهب الدكتور ديتلف نيلسن المتقدم ذكره في مجرى بحثه عن تاريخ الأديان إلى أن " جزيرة العرب فيما يرجح هى الوطن الأصلى للعنصر السامى، والشعوب السامية الشمالية التي نشأت عنها الحضارات السامية الشمالية الرفيعة. والدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى الأشورى المعقد، كما أن ذلك الدين العربى القديم هو الذي مهد لهذا التطور التاريخى للدين العبرى اليهودى مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائى الذي دان به آباء الشعب وأجداده الأولون كما أنه بقى زمنا طويلا موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين السامية الشمالية، والسامية الجنوبية، والذى تطور أخيرا إلى الثالوث الإلهى (آب وابن وروح قدس) ومن ثم خطا خطوة أخرى إلى التوحيد المسيحى في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة (2).

ويقول في مكان آخر: " إن بلاد العرب هى وطن الساميين ومهدهم الذي لم يخضع يوما من الأيام للأجنبى وسلطانه " (3).

وقد استند العلماء في دعم النظرية القائلة بأن " الجزيرة العربية هى مهد الحضارة السامية على البيانات التالية:

(1) صوت فلسطين، العدد 52، آيار 1972، ص 23.
(2) الدكتور ديتلف نيلسن ورفاقه، " التاريخ العربى القديم "، ص 53.
(3) المرجع السابق، ص 234.

1- أن البداوة عادة تسبق حياة الحضارة إذ لا يعقل أن ينتقل سكنة الريف والمزارعون من حياة التمدن إلى البداوة بل يحدث العكس، ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية فلابد أن يكون وطنها الأول وطنا صحراويا، وجزيرة العرب هى أصلح المواقع لكى تكون ذلك الوطن السامى الأول.

2- إن معظم المدن والقرى التي أسست في مناطق الهلال الخصيب على أطراف الجزيرة العربية هى عناصر بدوية استقرت فيها وأخذت تمارس الزراعة والتجارة، ولا يوجد هناك محل غير جزيرة العرب بإمكانه أن يحتوى هذه العناصر لذلك وبالقياس تكون الجزيرة العربية هى التي غذت الشرق الأدنى الساميين على موجات متتالية.

3- أن اللغة العربية (لغة جزيرة العرب) حافظت على نسبة كبيرة من خصائص اللغة السامية الأصيلة أكثر من أية لهجة من اللهجات السامية الأخرى [1].

5 ـ العوامل الإقليمية والبشرية وأثرها في بعث الهجرات من الجزيرة العربية:

يتضح مما تقدم أن العوامل الطبيعية بما تخللها من تطورات طرأت على البلاد بسبب الجفاف البطئ واشتداد الحرارة ونضوب المياه الجارية قد لعبت دورا رئيسيا في حمل سكان جزيرة العرب على الهجرة من وطنها الأصلى، ففى مقدمة الذين تبنوا وبحثوا عن ثقة وقناعة النظرية القائلة بأثر تغير المناخ في اندفاع تيار الهجرة من شبه جزيرة العرب التي أدت إلى تكوين الحضارة السامية العلامة الإيطالى كايتانى (1869 - 1926) [2]، فقد لفت كايتانى " أنظار العلماء

(1) G. A. Barton, "Ency of Religion and Ethics", vol.11, P. 379.

(2) هوليونه كايتاني (Leone Caetani) مستشرق ومؤرخ إيطالي من أهل رومة تعلم في جامعتها وقام برحلات إلى الشرق منها الهند وإيران ومصر والشام، كان يحسن سبع لغات منها العربية والفارسية، ألف بالإيطالية كتاب تاريخ الإسلام وطبع منه بين سنة 1905، وسنة 1908 ثمانية مجلدات ضخمة مزينة بالرسوم والخارطات، انتهى فيها إلى سنة 40 للهجرة، وكتب في تراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الأندلس، وقد نشر بالعربية كتاب تراجم الأمم لمسكويه (حول كايتاني وأعماله انظر: مجلس المقتبس 8: 47 - 50،=

إلى ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب، والجفاف الذي حل بها في أواخر الدورة الجليدية الأخيرة وهو يقول في ذلك:

" في الوقت الذي كانت فيه معظم النواحى الأوربية تغطيها الثلوج كانت جزيرة العرب تتمتع بمناخ معتدل وأمطار غزيرة وأشجار وزروع، ثم أخذت تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر ألف سنة، وإن كان هذا التقهقر بطيئا جدا، فإن تأثيره في حياة السكان لم يكن فجائيا بل كان مطردا تبعا للقلة في الأمطار وارتفاع حرارة الجو. ولكن هناك ازدحام في السكان كما هو الحال في البلاد المزدحمة الحالية، وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرقين متباعدين، ولذلك يمكن أن يقال إن سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار، فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع، ولما اشتدت الحالة بهم ونفذ صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا إلى بلاد أخصب تربة وأجود جوا وأكثر أمطارا، وهكذا بدأت أولى هجراتهم التي حدثت غير مرة، فإن الآثار التي استخرجت من جوف أرض ما بين النهرين، الفرات ودجلة، تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد المسيح، وهذه الاكتشافات يجب ألا تنفى فكرة حدوث هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ، والأسباب الجوية المبحوث عنها والتى حملت الأقوام على هجرة موطنهم الأول وتركه إلى وطن أحسن منه جوا ورطوبة هى نفسها التي حملت أقواماآخرين على الهجرة العامة[1]. فالجفاف الذي طرأ على وادى تريم قرب بحيرة (لوب نور) قد حمل الصينيين على هجر مساكنهم هناك في السنين الأخيرة وعلى ارتحالهم تدريجيا إلى أعالى وادى هونغ - هو في مقاطعة شانسى ومنها إلى البلد الصينية الأصلية ناهيك بما سجلته الهجرات الآرية التي بدأت قبل نحو ألفى سنة من التاريخ المسيحى على خطين مختلفين فقد بدأ خط الهجرة الأول من السهول المحيطة ببحر قزوين مارا بجبال أفغانستان شرقا فجنوبا إلى أن ينتهى ببلاد الهند الشمالية ذات الأنهر الخمسة وهى التي تعرف الآن بمقاطعة البنجاب. أما الخط الثانى

= مجلة المجمع العلمي العربي 23 : 259، المستشرقون 159، مجلة المشرق، ج12، الأعلام 6: 118.

(1) Caetani, "Studi di Storia Oeiental", P. 63.

الذي اختاره الآريون في هجرتهم فقد سار باتجاه الغرب مارا بالبلاد الواقعة شمال بحرى قزوين والأسود، وقد استقر أولئك الآريون المهاجرون مدة من الزمن في جنوب روسية ثم انتشروا منها في سائر أقسام القارة الأوربية [1].

وفى بيان التطور الجوى الذي حدث في جزيرة العرب وشمال أفريقيا والذى شمل تأثيره جميع الشرق الأدنى يقول العلامة " جايلد " وهو حجة في الموضوع: " في الوقت الذي كان فيه شمال أوربا مغطى بطبقات الثلوح إلى مسافات بعيدة وصلت إلى " الهازر " وكانت جبال الألب والبرنس مغطاة بجبال من الثلج، كان ضغط القطب الشمالى الشديد يسوق أعاصير الأمطار التي تهب على أوربا الوسطى ويجعلها تجتازها وتعبر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وتستمر في سيرها دون أن تستنزفها جبال لبنان فتصل إلى بلاد ما بين النهرين وجزيرة العبر حتى بلاد فارس والهند. فكانت الصحارى التي يلفحها العطش الآن، تتمتع بأمطار منتظمة، ولم تكن الأمطار الذاهبة بعيدا إلى جهة الشرق أكثر مما هى عليه الآن فحسب، بل أنها كانت موزعة على جميع فصول السنة بدلا من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء.

ولهذا يجب أن نتوقع وجود المروج والمراعى والبطائح في شمال حوض أفريقيا وجزيرة العرب وفارس ووادى السند على نحو ما يزدهر الآن في شمال حوض البحر المتوسط... وعندما كان الموت والكركدن والرنة يرعون في فرنسا وجنوب انجلترا، كان يعيش في شمال أفريقيا (وربما في جزيرة العرب أيضا) حيوانات من نوع ما يوجد الآن في زمبازى وروديسيا.

" وقد كان من الطبيعى أن تكون الأراضى الخصبة المعشبة في شمالى أفريقيا وجنوب آسيا مأهولة آنذاك بالسكان ومزدحمة بهم... وإنه لمن المعقول أن نحسب أن الإنسان كان بإمكانه أن يتقدم تقدما عظيما في مثل هذه البيئة الملائمة لا بل البيئة المحفزة [2]، ولكن هذه المنطقة الأفريقية الأسيوية تبدلت في نهاية العصر الجليدى تبدلا كبيرا وجزريا فأخذ يحل فيها الجفاف والجدب منذ ذلك الحين وانتهى فيها آخر عصر ممطر وحل فيها بدل ذلك عهد جفاف يقابل الفترة الجليدية الأخيرة في أوربا وشمال أمريكا [3].

(1) الدكتور رفيق التميمى، المقتطف، عدد يوليو 1944، ص 128.
(2) جايلد " الشرق القديم "، طبعة سنة 1964، ص 15 - 16.
(3) سومر (1949)، ج2، ص 130.

ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدل على ان جزيرة العرب كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار، فكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود، كما أن المنطقة الواقعة بين العلا و " معون " أو " معان " من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من أراضى ثمود قديما قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار، وكانت مملوءة بالحيوانات المفترسة، وكذلك المنطقة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادى مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم، حتى أن اللصوص كانوا يتخذونها مخابئ يهاجمون منها القوافل. " ويظهر من اتجاهات الأودية ومن وجود العاديات والخرائب وآثار السكن على أطرافها، والترسبات التي تمثل قيعان الأنهر، إن هذه الأودية كانت في الحقيقة أنهارا في يوم من الأيام ينبض فيها عرض الحياة، وأنها كانت تضيف عددا كبيرا من الأحياء، أما اليوم فقد اندثرت القرى وجفت أكثر الينابيع، واضطرت غالبية السكان إلى الهجرة والتنقل من مكان إلى مكان، والعيش عيشة الأعراب " [1].

ومن أنهار جزيرة العرب القديمة: وادى الحمث الذي شيدت مدينة يثرب على أحد فروعه وكان هذا النهر يصب في البحر الأحمر وهنالك أنهر ثلاثة أخرى كانت تجرى في السهول الواسعة في منطقتى نجد والحسا، وهذه الأنهر هى **أولاً**: وادى السرحان، الذي كان ينبع شرقى جبال حوران ويخترق سهول الجزيرة الشمالية ويصب في الخليج العربى، **ثانيا**: وادى الرمة وكان منبعه شرقى مكة ومن هناك يسير شرقا ليصب في بحر عمان بعد أن تنضم إليه عدة فروع، **ثالثا**: نهر الدواسر وهو أكبر أنهر الجزيرة العربية ويقع منبعه شرقى بلاد اليمن ويتجه شمالا مخترقا سهل الربع الخالى ثم يتصل بوادى الرمة بالقرب من شواطئ خليج البصرة. وفى هذا الدور الجيولوجى الذي كانت جزيرة العرب تتمتع فيه بأمطار غزيرة كان وادى الشريعة بحيرة عظيمة تبدأ من جنوب جبال حرمون وتمتد حتى وادى العربة ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر [2].

وقد وجد برترام توماس، صاحب كتاب " العرب " بقايا بحيرة في الربع الخالى عند منخفض أبو بحر كما لاحظ أن وادى الرمة لا يزال مليئا بالصخور

(1) الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 97 - 102.
(2) الدكتور رفيق التميمى، " المقتطف "، عدد يوليو 1944، ص 125 - 126.

الرسوبية والحصى مما يدل على أنه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه. ولا تزال بقايا بحيرات مليئة بالمياه في بعض المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية، ففي منطقة الخرج عدة بحيرات في وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهها في الوقت الحاضر لزراعة الأراضي المجاورة، وقد أتيح للمؤلف أن قام بدراسة خاصة لهذه البحيرات وإقامة مشروع رى عليها، إذ كانت الحكومة العراقية قد أوفدته على رأس بعثة فنية لدراسة إمكانيات هذه البحيرات، وتقع منطقة الخرج جنوب شرقى الرياض وتوجد فيها خمس بحيرات منها أربع بحيرات إلى الجنوب من اليمامة، أما الخامسة فتقع في الأراضي الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من منطقة الخرج على بعد زهاء مائة كيلو متر منها وتسمى " خفس دغرى " وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من أربعة آلاف متر مربع، أما عمق الماء فيها فيناهز أربعمائة قدم وتتصل هذه البحيرات بعضها ببعض عن طريق مجارى المياه الجوفية [1].

وقد جاء في نصوص القرآن الكريم ما يؤكد صراحة على وجود الأجواء الممطرة لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء كما قد ذهب إليه الباحثون المحدثون، وقد جاءت كلها في معرض التذكير والدعوة إلى الاتعاظ بمن تقدمهم من الأقوام الذين تمتعوا بوفرة العيش ورغده وذلك بتوافر المياه والمزارع والجنان والعمران. فيقول الدكتور الدواليبى في ذلك: " والمعجزة في هذه النصوص التي تقارب نحوا من أربعين آية أنها تدعم منذ نحو أربعة عشر قرنا وبكل صراحة تلك البحوث والاتجاهات التي أنتجتها الدراسات العلمية الحديثة، تلك الدراسات التي لم يكن من الممكن أن تقوم في تلك العصور " [2].

وقد ورد في الروايات اليونانية والرومانية القديمة ما يؤيد صراحة وجود أنهار طويلة في بلاد العرب، فقد ذكر هيرودوتس خبر نهر في بلاد العرب دعاه " كورس " وقال عنه أن ملكهم قد عمل على نقل المياه من هذا النهر العظيم إلى الصحراء على مسيرة اثنى عشر يوما عن ساحل النهر. كما ذكر بطليموس اسم نهر عظيم سماه لار (Lar) ويرى البعض أن هذا النهر الذي أشار إليه بطليموس هو " وادى الدواسر " الحالى الذي يمس حافة الربع الخالى " [3].

(1) الدكتور أحمد سوسة، " رى سامراء "، ج2، ص 539.
(2) " دراسات تاريخية عن أصل العرب "، ص 41 - 42.
(3) الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج 1، ص 98.

وقد توصل العلماء الجيولوجيون إلى أن سطح الأرض قد تعرض في الماضى لعدة تغيرات مناخية في مختلف العصور، فقد مر بأربع دورات جليدية تفصل بينها دورات أو فترات دفيئة ذات مناخ جاف لا يختلف عما هو سائد اليوم، وقد ميزوا الدورة الأولى بزحف جليدى إلى الجنوب غطى معظم سطح الأرض الشمالى، كذلك بقية المناطق من نصف الكرة الشمالى من كل من آسيا وأمريكا. أما منطقة جنوب شرق آسيا بما فيها بلاد العرب والعراق وسورية فقد تميزت في هذه الدورات الجليدية بأمطار غزيرة دائمة أحالت أوديتها أنهارا جارية ومستنقعات وبحيرات، كما ميزوا الدورات الدفيئة بتراجع الجليد إلى الشمال بحيث سادت فيها حرارة مرتفعة وجفاف أحال أكثر المناطق في جنوب شرق آسيا إلى صحارى وأراضى قاحلة غير قابلةللاستقرار والحياة الدائمة.

وقد تمكن علماء الجيولوجيا من تحديد أربع دورات جليدية تفصل بينها دورات دفيئة وقد أطلق عليها الأسماء الأربعة التالية:

1- دورة جليد جنز	Gunz	.....- ..... (؟)
2- دورة جليد مندل	Mindel	430000 - 370 000 ق.م
الدورة الدفيئة الأولى		370 000 - 130 000 ق.م
3- دورة جليد رس	Riss	130 000 - 100 000 ق.م
الدورة الدفيئة الثانية		100 000 - 40 000 ق.م
4- دورة جليد فزم	Wurm	40 000 - 18 000 ق.م
الدورة الدفيئة الثالثة		18 000 - 000 000 (؟)

هذا مع العلم أن التحول من الدورات الجليدية إلى الدورات الدفيئة والتحول العكسى كانا بطيئين على شكل تدريجى، إذا كان الجليد يستغرق زمنا طويلا في حركته نحو الجنوب أو باتجاه الشمال.

ويتضح مما تقدم: أن الدورة الدفيئة الكبرى هى تلك التي حصلت بين دورتى جليد مندل وجليد رس، إذ أنها دامت 240 ألف سنة، ولابد أنها كانت من أشد الفترات الدفيئة حرارة، كما يتضح أن العالم يجتاز اليوم الدورة الدفيئة الثالثة التي بدأت منذ 18000 سنة قبل الميلاد.

وقد قدم العلماء نظريات مختلفة لتفسير هذه الظاهرة الطبيعية، فقد عللها البعض بحركة التوازن الدائمة في سطح الكرة الأرضية، وقال آخرون بأن سدما

أو سحبا غازية توسطت الفلك ما بين الشمس والأرض، وقال البعض الآخر أن عدة عوامل تضافرت في إحداث هذه الظاهرة.

وهكذا ننتهى إلى أن مناطق الشرق الأدنى بما فيها صحارى أفريقيا وآسيا كانت في الدورة الجليدية الأخيرة (دورة جليد فرم) تتمتع بنعمة الأمطار الغزيرة والطقس البارد الرطب، وإننا نجتاز الآن الدورة الدفيئة ذات الطقس الحار الجاف المتميز بقلة الأمطار، وقد كانت هذه الدورة الدفيئة ذات الطقس الحار الجاف السبب المباشر في تكون الصحارى ونزوح أهل الجزيرة عن مواطنها [1].

6 ـ قدم حضارة جزيرة العرب:

لقد تضافرت الأخبار القديمة لتدعيم حقيقة ما كانت عليه جزيرة العرب، من أنواء رطبة وأمطار وأنهار وما طرأ من تغير على جوها حتى أدى إلى الجفاف الذي يكشف هذه البلاد في أوقاتنا الحالية، الأمر الذي أدى بالسكان إلى النزوح عن أوطانهم والهجرة إلى مناطق تتوفر فيها المياه وسبل العيش، وفيما عثر عليه من آثار تركها سكان هذه الأصقاع لدليل قاطع على قدم حضارة جزيرة العرب، ذلك ما يدل على أن أهل الجزيرة الذين هاجروا إلى الهلال الخصيب بسبب الجفاف الذي حل ببلادهم كانوا مزودين بتراث حضارى ورثوه عن أجدادهم وقد جاءوا به معهم من مناطق سكناهم الأصلية فأعانهم على تكوين حضارة خاصة بهم، فقد عثر على أدوات حجرية من العصور الباليوليثية والنيوليثية في مواضع من المملكة العربية السعودية تمتد من الأحساء (الهفوف) إلى الحجاز ومن مدائن صالح إلى نجران مما يدل على قدم حضارة وسكنى هذه المناطق.

ويؤكد المستر فيليبى أنه وجد آثارا من أصداق المياه العذبة وبقايا من الرواسب النهرية وأدوات صوانية تعود إلى أواخر العصر النيوليثى (حوالى الألف الخامسة قبل الميلاد) كلها تدل على أن صحراء الجزيرة العربية كانت في تلك الأزمان عامرة بأنهارها الدائمة الجرى وبمستوطناتها الزاخرة بالسكان ويرى أن اجتياح الجفاف لتلك البقاع أدى إلى هجرة سكانها وكان ذلك في رأيه في نفس الوقت الذي كانت تظهر فيه معالم أقدم المدنيات في مصر والعراق [2].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوربا، أى قبل خمسين ألف سنة، وأن ساحل

(1) الأستاذ محمد مصطفى بازامه، " تاريخ ليبيا "، بنغازى، 1973.
(2) المستر فيليبى، " الربع الخالى - أنهار مندثرة "، ص 140.

الخليج ولاسيما المنطقة الواقعة بين " الدوامى " وشمال القطيف، كان مزدحما بالسكان في العصور البرونزية أى حوالى 3000 - 250 ق.م، وقد عثر في البحرين أيضا على عدد من مواد من الصخور الصوانية قدر بعض الباحثين أن عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف سنة، وهى ترجع إلى أواخر أيام الرعى وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة [1].

ويؤكد الأستاذ محمد دروزة قدم حضارة الساميين العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، بقوله: ليس هناك من ينكر أماكن كون سكان هذه الجزيرة قد عاشوا عيشة مدنية وسياسية واجتماعية منذ أقدم الأزمنة التي سجل فيها الجنس البشرى حياة مماثلة في بعض الأقطار الأخرى، وبتعبير أدق منذ زمن أقدم من الزمن الذي تشير إليه الآثار المكتشفة في أرض الجزيرة وخارجها أو الأخبار والروايات الواردة في كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم أو نقوش مصر وبابل وآشور والتى يرجع بعضها إلى أربعة آلاف عام وأكثر قبل العهد المسيحى،ولاسيما أن هذه الآثار تدل على تقدم غير يسير في مضمار الحياة السياسية والمدنية والاجتماعية والعقلية لا يمكن أن يكون قد تم إلا نتيجة تطور وتدرج يرجعان إلى قرون كثيرة قبل الزمن الذي نقشت أو كتبت فيه... " [2]، ومما يمكن أن يقال تأييدا لهذا القول أن الجماعات التي جاءت من جزيرة العرب إلى وادى النيل وحوض دجلة والفرات واستقرت فيهما قبل أكثر من أربعين أو خمسين قرنا قبل الميلاد كانت على شئ غير يسير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية ووسائلها ومن المعقول أنها كانت مزودة بها من منشئها الأول " وقد لاحظ الرحالة الألمانى سوينفرت أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها لابدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق " [3].

ويؤيد ذلك أيضا الدكتور جواد على الذي قام بدراسات مستفيضة في تاريخ العرب قبل الإسلام فيقول: " وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام على أن العرب كان لهم علم واسع بتنظيم أمور الأرواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار، وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية

(1) الدكتور جواد على، " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص98.
(2) " تاريخ الجنس العربى "، ج1، ص 25 - 26.
(3) العقاد، " أثر العرب في الحضارة الأوربية "، القاهرة، 1960، ص 11.

الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود والمسالك والنحايت، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء. وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثا على صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض بأنفاق وعليها فتحات من مواضع متعددة لاستقاء الماء منها، عثروا عليها في القطيف والأحساء وفى الفلج، وأواسط نجد وأماكن أخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية، كما وجدوا على مقربة منها آثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة، ولم يكن يعرف العلماء سابقا أن أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الأرواء، بل كان المعروف أن الصهاريج المربوطة بأنفاق إنما كانت تستخدم في الشام وفى فلسطين وإيران والأقسام الشمالية من العراق. وقد اتخذ أصحاب النظرية القائلة بأثر الجفاف في شبه جزيرة العرب من وجود هذه القنوات للأرواء في مناطق صحراوية دليلا على تأييد نظريتهم في جفاف جو شبه جزيرة العرب " [1].

وتدل المعلومات التي جمعها الخبراء من مختلف أنحاء جزيرة العرب على أن الدول القديمة التي قامت في اليمن كانت على اتصال بالسومريين والأكديين والأشوريين والعموريين في وادى الرافدين، كما كانت على اتصال بالكنعانيين في فلسطين وكذلك بمصر والشام والحبشة وعيلام منذ أقدم العصور. وكانت منطقة " مجان " (عمان حاليا) مصدرا مهما للنحاس لسكان وادى الرافدين القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ واستمرت كذلك في العهد السومرى والعهود التي أعقبته، وتصفها الكتابات المسمارية بأنها " جبل النحاس " وقد اشتهرت " مجان " أيضا بحجر الديوريت الأسود المشهور، ويرجح أن الدوريت الذي كان ملوك العراق القدامى يستعملونه في صنع التماثيل والأنصاب كان يجلب بالدرجة الأولى من " مجان " وتشير أخبار الدولة الأكدية إلى غزو ترام سين (2292 - 2255 ق.م) حفيد سرجون لمجان حيث كانت تقوم فيها مملكة يبدو من اسم ملكها " أنيثوم " أنه من الساميين العرب، وكانت الدولة العربية في جنوب جزيرة العرب ومنها اليمن مصدر تصدير وتجارة مرور للبخور والعطور كما كانت مركزا هاما للاتصال التجارى بين المحيط الهندى والبلاد الواقعة شرق البحر المتوسط [2].

(1) " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 101 - 102.
(2) الدكتور نيلسن ورفاقه، " التاريخ العربى القديم "، ص 113.

7 ـ حضارة اليمن القديمة:

أ – مملكة معين :

إن أقدم شعب عربي وصلتنا أخباره من جنوب الجزيرة العربية هم المعينيون، مؤسسو الدولة المعينية التي عاشت في اليمن وظهرت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد على رأى بعض العلماء ويعتبر المعينيون أقدم الشعوب التي حملت لواء الحضارة في بلاد العرب الجنوبية، وقد ظهرت هذه الدولة في الجوف وهى منطقة سهلة بين نجران وحضرموت أرضها خصبة ومنبسطة، وقد كانت عاصمة هذه الدولة مدينة " القرن " ومن مدنها " ونشق " و " براقش " و " كمنا " وغيرها. وفى القسم الجنوبى من الجوف تقع خرائب مدينة " معين ". وقد عثر على كثير من الكتابات المعينية وهى من أقدم الكتابات العربية المعروفة، وقد توصل المستشرقون من دراساتهم لهذه الكتابات لمعرفة أسماء عدد من ملوك معين إلا أنهم لم يستطيعوا تنظيم قائمة بأسمائهم حسب تسلسل سنىّ حكمهم، ومن أقدم هذه الأسر التي عثر على أسماء ملوكهم أسر " إيل صادق " و " وقه إيل " و " صدق إيل ". ويلاحظ هنا إضافة اسم الإله " إيل " إلى أسمائهم مما يدل على أن الإله " إيل " الذي دعا إبراهيم الخليل إلى عبادته كان معروفا في الجزيرة العربية وأنه من أصل عربى بحث [1]، ويستدل من الديانات المعينية على أن الإله " ود " كان الإله القومى الرئيسى لشعب معين، وكانت حضرموت جزءا من مملكة معين وما يتبعها من مقاطعات في عهد الملك " صدق إيل " الذي كان يلقب بملك معين وحضرموت.

(1) انظر ما يلى عن إبراهيم الخليل في الفصل الخامس.

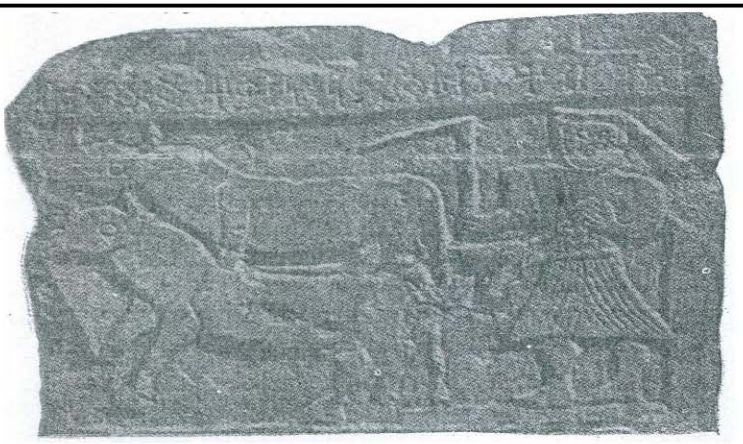

التصوير رقم (52)
فلاح يمني يحرث الأرض

كانت أهم المنتوجات اليمانية العطور والتوابل والبخور التي درت على اليمانيين أرباحا كثيرة وأنعشت تجارتهم مع بلد الهلال الخصيب وبلدان البحر المتوسطى حيث كانت تصدر إليها هذه المنتوجات، مع العلم أن العطور والبخور كانت تستعمل في المعابد والطقوس الدينية وللتحنيط، كما كانت التوابل من المواد الضرورية للطعام وحفظ المأكولات في تلك الأزمنة، وإلى جانب امتهان اليمانيين الزراعة، كان فيهم رعاة الماشية الذين يعيشون حياة البداوة.

إن أقدم ذكر المعينيين ورد في كتب الكلاسيكيين مثل ديودورس الصقلى وسترابون وبلينيوس وأراتوستين وبطليموس وهو آخر من ذكرهم، ويرى بعض الباحثين أن المقصود بالمعونيين الوارد ذكرهم في التوراة [1]، هم المعينيون الذين كانوا يقطنون في المناطق الشمالية. وآخر ذكر لحكومة معين ورد في المؤلفات الكلاسيكية التي تعود إلى القرن الأول الميلادى، ويتفق أكثر العلماء المختصين على أن حكومة معين انقرضت وحلت محلها حكومة سبأ، مع أن اسم المعينيين ورد في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع زمنها إلى ما بعد سقوط حكومتهم.

ب ـ مملكة قتبان:

عاصرت الدولة المعينية مملكة عربية أخرى كانت تعرف باسم مملكة قتبان، وكانت أراضى هذه المملكة تقع في الأقسام الغربية من الجزيرة العربية وإلى

(1) (1 أ خ 4: 41)، (2 أ خ 26: 7).

الجنوب الغربى من أرض المعينيين وتمتد حتى باب المندب. وقد استدل علماء الدراسات العربية من الكتابات التي حصلوا عليها أن هذه المملكة حكمت حوالى 800 سنة بين القرن العاشر والقرن الثانى قبل الميلاد. أما عاصمتها فهى مدينة " تمنع " وتعرف حاليا باسم " كحلان " وتقع في وادى بيجان في منطقة كانت تتميز قديما بخصبها وبكثرة مياهها ومزارعها وبساتينها، وقد كشفت آثار " تمنع " مؤخرا عن بقايا عدد كبير من المعابد والدليل على كثرة المعابد في مدينة " تمنع " أن الكتابات الرومانية ذكرت ان عدد المعابد فيها بلغ 65 معبدا، ويستدل من الكتابات القتبانية على أن الإله القومى الرئيسى الذي كان يعبده القتبانيون من دون بقية الآلهة هو الإله " عم ".

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافى ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج أحسن أنواع البخور فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة حدت من نفوذ المعينيين وهناك أدلة تشير إلى أن حكومة معين خضعت لحكمة قتبان في سنة 820 ق.م.

ويستدل من بعض الكتابات القتبانية القديمة أن حكام قتبان كانوا يتلقبون بلقب " مكرب " ووجد في كتابات أخرى أنهم كانوا يتلقبون بهذا اللقب بالإضافة إلى لقب ملك، ثم صاروا يتلقبون بلقب ملك وحده، وقد نظم علماء الدراسات العربية قوائم بما عثر عليه من أسماء ملوك القتبانيين وبحثوا في سنى ملك كل منهم.

ج ـ مملكة أوسان:

وعرف من الكتابات القتبانية اسم شعب يقال له " أوسن " أو " أوسان " كانت له حكومة ومملكة عثر على أسماء بعض ملوكها، وكانت ممتلكات هذه الحكومة تكوّن جزءا من مملكة قتبان ولكن الأوسانيين ثاروا على قتبان وانفصلوا عنها وكونوا مملكة أوسان التي انضمت إليها أو تحالفت معها قبائل أخرى.

وكان الأوسانيون مثل المعينيين والقتبانيين من أهم شعوب العالم المصدرة للبخور الذي كان يؤلف مادة ثمينة في ذلك الزمن من حيث أنه كان يقدم إلى الملوك وإلى الآلهة لكسب رضاها، وقد وصلتنا كتابات أوسانية كانت من جملة الكتابات التي اعتمد عليها الهمدانى في الحصول على معلوماته عن أخبار اليمن القديمة.

وقد وصلت إلى أيدى المنقبين من هذه المملكة الصغيرة عدد من التماثيل الرخامية لبعض ملوكها تعد من أنفس ما عثر عليه من آثار في شبه جزيرة العرب، وهى أول تماثيل تصل إلينا لملوك العرب وقد كتب على قاعدة كل واحد

منها اسم الملك الذي يمثله. والتصوير رقم (53) يمثل أحد ملوك أوسان المدعو معد إيل سلحان بن يصدق إيل، وتفيدنا هذه التماثيل في التعرف على نماذج ملابس الأوسانيين وكيفية تنظيم شعور رؤوسهم بنفس الطريقة التي ما يزال يتبعها البدو في الوقت الحاضر.

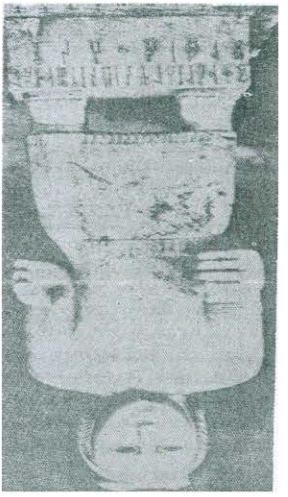

التصوير رقم (53)
الملك " معد إيل " سلحان " يصدق إيل " ملك أوسان
(عن مارجوليوت، اللوحة 3)

د ـ مملكة حضرموت:

ومن الممالك الأخرى من حكومات جنوب جزيرة العرب التي عاصرت ممالك معين وقتبان وأوسان وغيرها من الممالك العربية الصغيرة، مملكة حضرموت وقد ظهرت قبل المسيح بمئات من القرون، وهى تتميز عن الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد في كونها ماتزال تحتفظ باسمها القديم حتى هذا اليوم، وقد ورد اسم حضرموت في التوراة [1]، كما ورد اسمها في الكتابات اليونانية والرومانية وفى الكتابات المعينية.

وقد ورد في الأخبار أن قبيلة عاد التي ورد ذكرها في أكثر المصادر والتى تعد من أقدم القبائل العربية كانت تسكن في حضرموت الشمالية، وهؤلاء على رأى الرواة وأهل الأخبار هم من ضمن قبائل الطبقة الأولى وهى أقدم الطبقات بحسب تقسيم العرب لأنساب القبائل العربية وقد سميت بالعرب البائدة لانقراضها.

(1) (تك، 10: 26).

وكان الحضرميون يعبدون من بين آلهتهم الإله " سين " (الإله القمر) الذي كان يعد الإله القومى الرئيسى لشعب حضرموت، وقد عثر المنقبون على آثار معبد هذا الإله في " الحريضة " ويعتقد أن بعض واجهات المعبد تعود إلى أواسط القرن الخامس حتى القرن الرابع قبل الميلاد وأن قسما من بناء المعبد يعاصر الدور السلوقى. ويلاحظ أن اسم الإله " إيل " (الإله العلى العظيم) أضيف إلى أسماء بعض ملوك حضرموت مما يدل على أن الإله " إيل " كان معروفا لدى العرب منذ القديم.

وقد تمكن العلماء المختصون بالدراسات العربية من الوقوف على أسماء عدد من حكام هذه المملكة فنظموا قوائم بهم حسب تسلسل سنى ملوكهم ومن هؤلاء الملوك " صدق إيل " الذي كان ملكا على حضرموت ومعين وقد ذكر أنه حكم في أواخر القرن الخامس ق. م، وتشير الكتابات الحضرمية إلى الروابط القوية بين حضرموت ومعين، ففى الوقت الذي كان معد يكرب ملكا على حضرموت كان شقيقه ملكا على معين، كما تشير هذه الكتابات إلى أن عددا من المكريين حكموا في حضرموت.

وقد اتخذ ملوك حضرموت مدينة " شبوة " عاصمة لهم وقد ذكرها الكتاب الكلاسيكيون في كتاباتهم كما ذكرها الهمدانى، وقد زار فيليبى موضع هذه المدينة وكشف عن آثار معابدها وقصورها القديمة، كما كشف عن آثار السدود التي كان قد أقامها الحضرميون في وادى شبوة لخزن مياه الأمطار واستغلالها في إرواء الأراضى الزراعية.

هـ ـ مملكة سبأ:

إن هذه الدولة العربية اليمانية التي ورثت حكومات معين وقتبان وأوسان وحضرموت تمثل دولة اليمن الكبرى، فقد ورد ذكر السبئيين في النقوش الأشورية حيث يذكر كل من تغلاث فلاسر الثالث (745 - 727 ق.م) وسنحاريب (704 - 688 ق.م) وأسرحدون (681 - 669 ق.م) بأنهم أخذوا الجزيرة من يثعمر وكرب إيلو من ملوك سبأ، كما أن التوراة ذكرت سبأ وهى تارة تدخل أهل سبأ في أسرة الحاميين وتعدهم من كوش بن حام [1]، وتارة أخرى تذكرهم في الساميين [2]، ثم جعلت شبا من ولد يقطان بن عامر في موضع آخر [1]، وجعلته

(1) (تك، 10: 7)؛ (1 أخ 1: 9)؛ راجع أيضا (أ ش، 43: 3).
(2) (تك، 10: 28).

من ولد يقشان [2]، ويقشان من أولاد إبراهيم من زوجته قطورة [3]. وقد ورد ذكر السبئيين في المؤلفات اليونانية والرومانية أيضا، كما ورد اسم سبأ في القرآن الكريم [4] وما في ذلك من أخبار سيل العرم [5].

أما عن أصل السبئيين فيرى البعض أنه من المحتمل أنهم كانوا في الأصل قبائل بدوية من سكنة الجوف الشمالى من جزيرة العرب غير أنهم تركوا مواطنهم في القرن الثامن قبل الميلاد وارتحلوا إلى جنوب الجزيرة وهناك استقروا وأخذوا يتوسعون في ممتلكاتهم مستفيدين من ضعف المعينيين حتى وصلوا إلى الجوف الجنوبى من الجزيرة، وهناك اتخذوا " صرواح " و " مأرب " عاصمتين لهم. وتقع بلدة مأرب التي اكتسبت شهرتها من سدها العظيم على نحو ستين ميلا إلى الشرق من صنعاء، وكان ملوك سبأ الأقدمون يلقبون بلقب مكرب شأنهم في ذلك شأن ملوك قتبان الأوائل، ثم أخذوا يتلقبون بلقب ملك، وقد وصلت إلينا أسماء 15 مكربا و12 ملكا.

و ـ سد مأرب أو سد العرم:

اشتهر دور المكارب ببناء السد الشهير المعروف بـ " سد مأرب " الذي يعد أعظم سد أنشئ في الجزيرة العربية إذ كان من أعاجيب العالم القديم، فأول مكاربى سبأ وصل اسمه إلينا " سمح على " حوالى (800 - 780 ق.م) ثم تلاه في الحكم المكرب " يدع إيل ضريح " و " يدع إيل بين " وقد تولى بعد ذلك المكارب " سمح على ينف " و " يثمر وتر " و " كرب إيل بين " هم الذين قدموا الجزية لسنحاريب وأسرحدون، وفى عهد " ذمر على وتر " خلف " كرب إيل بين " بدئ بتشييد سد مأرب أو سد العرم الذي ظل يتردد ذكره بين الناس فدخل خبره كثير من المبالغات والأساطير، قال ياقوت نقلا عن المسعودى: " إن بانيه هو سبأ بن

(1) (تك، 10: 26 - 28).
(2) (تك، 25: 3).
(3) (تك، 25 - 1 - 2).
(4) سورة سبأ، الرقم 34، الآية 15.
(5) سورة سبأ، الرقم 34، الآية 16.

يشجب بن يعرب مات قبل أن يستكمله فأتمته ملوك حمير بعده " كما قال نقلا عن المسعودى أيضا أن لقمان بن عاد هو الذي بنى السد وجعله فرسخا في فرسخ وجعل له ثلاثين مثقبا [1].

والسد عبارة عن حائط ضخم أصم أقيم في عرض وادى أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول المنحدرة من الجبال الواقعة في أطراف صنعاء، ممتد بطول حوالى 800 ذراع وبعرض 150 ذراعا من الشرق إلى الغرب، وقد بنى السد بالتراب والحجارة، ينتهى أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى لمنع انجراف التراب عند تدفق المياه، ويستند السد من طرفيه إلى جبلين وعند أسفل كل من هذين الجبلين منافذ للمياه مبنية بالحجارة الضخمة المتينة يخرج منهما الماء ليسقى الجنتين اليمنى واليسرى، ويصعد من هذه المنافذ إلى أعلى الجبل بمدرجات مبنية على وجه الجبل، وكانت هذه المنافذ تفتح وتسد بواسطة أبواب محكمة وحركات مهندسة فتفتح للسقى حسب الحاجة ثم تسد عند إتمام السقى، وقد أدخلت عدة إضافات على السد بعد بنائه حتى استكمل شكله النهائى في حوالى سنة 300 م [2].

أما قصة سيل العرم وخراب السد، تلك الكارثة الكبرى التي أشار إليها القرآن الكريم [3] فقد اختلف الباحثون في تفاصيلها وخاصة فيما يتعلق بتاريخ انهيار السد الذي عده أكثر الباحثين السبب المباشر لهجرات القبائل العربية من اليمن إلى سورية والعراق وتفرقهم في أطراف جزيرة العرب مما آل إلى تأسيس دولة الغساسنة في سورية والمناذرة في العراق [4].

فقال حمزة الأصفهانى: أن الحادث وقع قبل الإسلام بأربعمائة سنة [5]، أى في القرن الثالث الميلادى، وذكر ياقوت أن الحادث وقع في عهد ملك حبشان ولعله يريد الأحباش الذين فتحوا اليمن في القرن السادس الميلادى وأحرقوا كثيرا من قصورها وأبنيتها، كما أفاد ابن خلدون أن السد تهدم في أيام حسان بن تبان

(1) ياقوت 4: 382.
(2) الدكتور صالح أحمد العلى، " محاضرات في تاريخ العرب "، ص 23.
(3) سورة سبأ، الآية 15.
(4) انظر ما تقدم حول دولتى الغساسنة والمناذرة.
(5) " تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء "، الطبعة الثالثة، 1961، ص 8.

أسعد (القرن الخامس الميلادى) وقد وصف الهمدانى في كتابه " الإكليل " بقايا السد التي شاهدها بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) [1].

والأرجح أن كثرة التصدعات والترميمات في السد كانت هى السبب في اختلاف الإخباريين في تحديد تاريخ انهيار السد وإرجاعه إلى عصور مختلفة إذ كانوا يعدون كل تصدع تهدما. وعلى الغالب أن هجرات القبائل العربية من اليمن كانت على شكل تدريجى وعلى موجات متتالية بسبب هذه التصدعات التي كانت تقلل من فعالية السد نتيجة تعذر إملائه إلى الارتفاع الذي صمم عليه في الأصل حتى انهار نهائيا. ولعل القحط وقلة الأمطار في مواسم متتالية كانت هى الأخرى السبب في نزوح القبائل بطونا وأفخاذا.

ومن المنقبين المحدثين الذين بحثوا عن السد المستشرق الفرنسى أرنولد الذي تمكن من الوصول إلى السد سنة 1843 وزار السد بعده كل من هاليفى وكلازر ووافقاه في وصفه وهو يطابق ما قاله الهدانى [2].

وقد عثر لدى التنقيب في أنقاض السد على كتابات بالحرف المسند ورد فيها أن بانى الطرق الأيسر هو " سمهملى ينوف بن ذمر على مكرب " [3] سبأ وأنه خرق جبل بلق وبنى مصرفا رحبا لتسهيل الرى "، وبانى الطرق الأيمن " يثعمر بن سمهملى ينوف " وقد نقشت نفس العبارة التي على الطرف الأيسر على هذا الطرف أيضا، وهذا ما يشير إلى أن الملك الأب بنى جانبا والملك الابن بنى الجانب الآخر وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد.

أما عن تهدم السد فقد وفق كلازر إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة تتعلق بترميم ما انصدع من البناء وقد كتب أحدهما أبرهة الحبشى، وذلك بعد

(1) انظر كتاب " العرب قبل الإسلام " تأليف جرجى زيدان، ج1، ص 150، و " تاريخ العرب "، المطول للدكاترة: حتى وجرجى وجبور، الطبعة الرابعة، ج1، ص 70، 84.

(2) Arnaud, "Plan de la digue et de la ville Mareb" Journal Asiatique, 7me. Serie, Iv, Paris, 1974; Halevy, "Etudes Sabeennes", J.A. 7me Serie, I, II, IV, Paris, 1873 - 74; Glaser, "Der Damme von Marib", O.M.O.XXIII, 1897.

(3) لقب مكرب كان يطلق على حكام اليمن الأوائل وهى كلمة دينية تعنى المقدس ولكن عندما أخذت الدول العربية تتدرج من النظام الثيوقراطى إلى النظام الملكى الدنيوى حل محله لقب " ملك "..

دخول اليمن في حوزة الأحباش وقد أرخت هذه الكتابة في سنة 658، وهذه السنة في حساب الحميريين تعادل سنة 543 للميلاد [1].

ز ـ العصر الحميري:

كان السبئيون قد خلفوا المعينيين في نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق فكانت السلع والأطياب تأتى من الهند والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب فينقلها السبئيون على قوافلهم إلى مصر والشام والعراق فكان أن ازدهرت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتد سلطانهم إلى أطراف الجزيرة شمالا وشرقا فعمروا بلادهم بحفر الترع وإنشاء السدود وبناء القصور والهياكل والحصون وقد مارسوا الزراعة على أوسع نطاق مستفيدين من وجود سد مأرب الذي كانوا يرممونه عند كل تصدع يصيبه حتى أخذت طرق التجارة تتحول من البر إلى البحر فصارت تسير في الطريق البحرى من المحيط الهندى إلى البحر الأحمر وتنزل بضائعها في الموانئ المصرية أو في العقبة.

وقد أدى ذلك إلى تدهور أحوال المدن اليمانية التي كانت تعتمد في الأكثر على التجارة المارة بها، ذلك في حين تحول الانتعاش إلى المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الأحمر فأخذت قوة هذه المدن تزداد تدريجيا حتى استطاعت أن تتغلب على السبئيين وأن تكوّن دولة مستقلة. وكان أصحاب هذه المدن هم " الحميريون " وهم فرع من السبئيين اتخذوا " ريدان " التي هى ظفار الواقعة على بعد مائة ميل من مخا، عاصمة لهم.

ويبدأ العصر الحميرى سنة 115 ق.م حين انتقلت عاصمة السبئيين إلى ريدان وينتهى بانقراض دولة حمير على عهد ذى نواس 525 م. وبذلك يكون الحميريون قد حكموا في اليمن 640 سنة، وقد عثر علماء الآثار على أسماء 28 ملكا من ملوك حمير حكموا في الفترة الممتدة بين سنة 115 ق.م، وسنة 525 ق.م.

وقد ساعد الحميريين موقعهم الساحلى واحتكارهم الملاحة في البحر الأحمر على المساهمة في الحركة التجارية حتى سنحت لهم الفرصة فتغلبوا على إخوانهم السبئيين أو اتحدوا معهم في أواخر أيام دولتهم فصار لقب زعيمهم " ملك سبأ وذى ريدان " وريدان هى ظفار عاصمة الحميريين، وفى نهاية القرن الثالث

(1) انظر نص هذه الكتابة المطولة في كتاب " العرب قبل الإسلام " تأليف جرجى زيدان، ص 159.

الميلادى تلقب ملوك سبأ بلقب جديد هو " ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال وفى تهامة " مما يشير إلى توسع مملكة الحميريين وامتداد نخومها لتضم تلك المناطق، ومن يمنت جاء اسم اليمن الذي توسع مدلوله ليشمل في العصور الإسلامية أراضى واسعة لم تكن تعد من اليمن قبل الإسلام.

وقد بالغ المؤرخون العرب كثيرا في وصف فتوحات دولة حمير إذ نسب إلى أحد ملوك حمير المدعو أسعد أبو كرب (385 - 420 م) إنه غزا أذربيجان والقسطنطينية وحارب الترك وهزمهم كما أنهم نسبوا إليه غزوات كثيرة وأعمالا عظيمة منها غزو المدينة (يثرب)، ومن الثابت أن الحميريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الأول قبل الميلاد.

وفى عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن فاتخذ الأحباش من نصارى اليمن سندا لهم واستولوا على اليمن سنة 340م، غير أن الحكم الحبشى لم يدم طويلا فقد استطاع اليمانيون إخراجهم سنة 378م، وكان لهذه الحملة رد فعل عند اليمانيين الحميرين ضد النصارى فلما جاء ملك ذو نواس (515 - 525م) عزم على اجتثاث المسيحية من اليمن وفرض على النصارى ترك دينهم فلما أبوا أحرقهم بالنار وحرق الإنجيل، ويرى أن ذا نواس اعتنق اليهودية وتسمى يوسف أو فنحاص، غير أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين وتعصبه لليهودية آثار البيزنطيين فأوعزوا إلى الأحباش بالهجوم على اليمن انتصارا للنصارى، وكان أن جهز الأحباش حملة على الدولة الحميرية واستطاعوا أن يقضوا عليها، فقتلوا أهلها وهدموا حصونها، أما ذو نواس فقد رمى بنفسه في البحر وقال: الموت في البحر أحسن من الأسر، ولكن لم يلبث أهل اليمن طويلا حتى استنجدوا بالساسانيين [1] الفرس وهم أعداء البيزنطيين فأنجدهم أنوشروان بقوة استطاعت أن تخرج الأحباش منها وبذلك تحررت اليمن رغم محاولة الفرس البقاء فيها.

8 ـ ديانة عرب الجزيرة:

إن أكثر ما في ثقافة أهل الجزيرة العربية القديمة يتمثل بنشاطاتهم الدينية،

(1) انظر الدكتور جواد على " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 281 - 411، ج2، ص 8 - 276، ج3، ص 136 - 209. جرجى زيدان " العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 103 - 163. الدكتور أحمد صالح العلى، " محاضرات في تاريخ العرب "، ص 17 - 35.

شأنهم في ذلك شأن الأقوام القديمة التي ازدهرت في تلك الأزمان السحيقة، فكانت ديانة عرب الجزيرة قائمة على الوثنية، وهى نفس ديانة السكان القدماء في الأقطار الأخرى، وقد جاءوا بها إلى مستعمراتهم الجديدة مع لغتهم وثقافتهم الأدبية والمادية حاملين معهم آلهتهم وأهمها الإله القمر " سين ". وكانت عبادة هذا الإله شائعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا جنوبها وشمالها، كما كان معروفا في بلاد الحبشة. وكأن الإله القمر إلها مذكرا عند سائر الساميين في حين أن الإله الشمس كان إلها مؤنثا عند الساميين في جنوب الجزيرة العربية ومذكرا عند الشماليين.

وعلى العكس من ذلك كانت " الزهراء " إلها مذكرا عند الجنوبيين ومؤنثا عند الشماليين.

ويرى الأستاذ ديتلف نيلسن: أن هذا التغير في جنس الشمس والزهرة يشير إلى انتقال الديانة السامية القديمة من الجنوب إلى الشمال وتغيرها بسبب البيئة الجديدة. ويعتقد أن تسمية سيناء مأخوذة من الإله " سين " المذكور.

ويقول الأستاذ نيلسن في دراسته عن الديانة العربية القديمة[1]: أن عدد الآلهة الذين توصل المؤرخون إلى معرفة أسمائهم في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب بلغ أكثر من مائة اسم، منهم خمسون إلها توجد عنهم معرفة تفصيلية. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر أسماء خمس من الآلهة التي كانت تعبد في الجزيرة العربية ترجع إلى زمن نوح عليه السلام وهى: " ود " و " سواع " و " يغوث " و " يعوق " و " نسر " [2] كما ورد في القرآن الكريم أيضا ذكر ثلاثة من الآلهة الإناث هى: " اللات " و " العزى " و " مناة " [3].

والجزيرة العربية كانت مهبطا لعدد من الأنبياء والرسل الذين نادوا بالوحدانية، ذكر بعضهم القرآن الكريم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم، فقال تعالى:{مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر: ٧٨]. وما إبراهيم الخليل عليه السلام إلا أحد هؤلاء الأنبياء الذين يرجع أصلهم إلى الجزيرة

(1) نيلسون ورفاقه " التاريخ العربى القديم "، الترجمة العربية، ص 84.
(2) سورة نوح، الآية 21 وما بعدها.
(3) سورة النجم، الآية 20، انظر: الدكتور جواد على " أصنام العرب "، مجلة " سومر " المجلد 23، (1967)، ص 3 - 46.

العربية[1]، وكذلك الكاهن الأعلى الموحد " ملكى صادق " ملك أورشليم [2].

ثم جاء من بعده الكاهن المديانى الموحد يثرون والذى كان على ما يرجح الباحثون يعبد الإله " يهوه " وهو اسم الإله الذي اتخذه اليهود إلها خاصا بهم فيما بعد. بشر هؤلاء بالتوحيد قبل ظهور أتباع موسى بألف إلى ألفى عام، دعوا إلى عبادة الإله الواحد خالق السماوات والأرض، وقد نسبت هذه الدعوات النبوية كلها إلى أصل واحد، هو السلالة السامية العربية ختمت بدعوة محمد (عليه الصلاة والسلام) التي جاءت متممة لها.

وهناك ما يدل على أن بعض القبائل العربية في الجزيرة كانت تمارس دين التوحيد الذي نادى به إبراهيم الخليل عليه السلام من قبل والذى يرتقى إيمانه به إلى زمن يسبق عهد موسى واليهود، فيقول الدكتور غوستاف لوبون: " لقد وجد بين العرب في جزيرة العرب من يعبد إلها واحدا وسمى هؤلاء بالحنفاء، وكان محمد ◘ يحب هذا الاسم، وليست عقيدة التوحيد، التي هى من أهم مبادئ القرآن، كل ما عند الحنفاء، بل قالوا أيضا، كما قال القرآن فيما بعد، إن على الإنسان أن يسلم بقضاء الله وقدره تسليم إبراهيم حينما رأى ذبح ابنه اسحاق (والصحيح ابنه إسماعيل) ولذا لم يكن من الخطأ إخبار محمد ◘ في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره [3]، والحنيف ذكر في الغالب مقترنا بإبراهيم في القرآن الكريم مشيرا إلى وحدانية الله:{مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [البقرة: ١٣٥]، و{حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ} [الحج: ٣١] هذا مع العلم أن ذكر (الله) كان شائعا عند شعراء الجاهلية قبل الإسلام فمعظمهم كان يدرك معنى الإله العلى الذي يهيمن على كل شئ خالق السماوات والأرض. فقد جاء في ديوان امرئ القيس الشاعر العربى الشهير ما يشير بوضوح إلى رفضه عبادة الأصنام وميله إلى وحدانية الإله [4].

فكان الاصطلاح " ملة إبراهيم حنيفا " شائعا عند العرب قبل ظهور الإسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان إذ كانوا يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له، لذلك فقد أطلق اللقب

(1) انظر الفصل الخامس " عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب "..
(2) انظر الملحق الأول " أورشليم في أقدم عصورها "..
(3) " حضارة العرب "، ترجمة عادل زعيتر، ص 99 - 100 (الطبعة الرابعة).
(4) انظر " أديان العرب قبل الإسلام "، مجلة العربى، العدد 1168، تشرين الثانى 1972، ص 44 - 49.

المذكور على من عرف بنبذه الشرك وميله إلى التوحيد [1].

والمسعودى يؤيد ذلك بقوله: " إن العرب كانت في جاهليتها فرقا: منهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور، موقنا بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصى، فهناك من دعا إلى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته كقس بن ساعدة الأيادى ورئاب الشنى وبحيرا الراهب، وكانا من عبد القيس، ومنهم أمية بن أبى الصلت المتوفى سنة 624م، وكانت تربطه بالرسول صلى الله عليه وسلم قرابة عن طريق أمه [2].

9 ـ قبائل العرب البائدة:

وقد أورد الإخباريون العرب ذكر أسماء عدد من القبائل العربية القديمة في شبه جزيرة العرب كانت لها حضارة قديمة ترجع إلى ما قبل الميلاد، وقد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، ويقول الرواة وأهل الأخبار أن هذه القبائل العربية هى من ضمن قبائل الطبقة الأولى، وهى أقدم الطبقات بحسب تقسيم الإخباريين لقدم القبائل العربية وقد سميت بالعرب البائدة بسبب انقراضها واندثارها. ويكاد يتفق المؤرخون على أن هذه الطبقة تشتمل على أقدم القبائل العربية وهى: عاد وثمود ومعين وسبأ والعمالقة وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم الأولى وحضورا. ومن المتفق عليه أن جميع قبائل العرب البائدة هذه هى من أولاد إرم بن سام بن نوح عليه السلام وقد كانت على ما أورده الإخباريون موجودة في عهد إبراهيم الخليل الذي هو منها بصفته من القبائل الأرامية [3].

والظاهر أن هلاك هذه القبائل كان بسبب كوارث طبيعية نزلت بها كالعواصف الرملية أو البراكين أو الهزات الأرضية، ولعل أهم من كل ذلك انحباس المطر واجتياح الجفاف للمنطقة مما أدى إلى نزوح الإنسان والحيوان من وطنهما والارتحال عنه إلى مناطق تتوفر فيها أسباب العيش وفى مقدمتها المياه.

---

(1) ولفنسون، " تاريخ اليهود في بلاد العرب "، ص 78 - 80.

(2) انظر في موضوع الحنفاء:
ابن هشام، السيرة، ج1، 242 - 224؛ المسعودى، " مروج الذهب "، ج2، ص 102، محمد بن حبيب البغدادى، " المحبر "، صدر آباد، 1942، ص 171 - 172؛ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينورى، " المعارف "، القاهرة، 1960، 58 - 62؛ الألوسى، " بلوغ الأرب "، ج2، 244 - 286؛ ابن الكلبى، " الأصنام "، 60 - 61.

(3) انظر ما تقدم عن " القبائل الأرامية والعرب البائدة "، في الفصل الأول.

أما القبائل التي كتب لها البقاء بعد هلاك الطبقة الأولى فهم العرب القحطانيون في الجنوب والعرب العدنانيون في الشمال، وقد سموا في عرف بعض النسابين " العرب العاربة " (الطبقة الثانية) والعرب المستعربة أو المتعربة (الطبقة الثالثة) على التوالي، وقحطان هو " يقطان " الذي ورد اسمه في التوراة وهو يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح [1]، وعلى ذلك فالقحطانيون هم أقدم عهدا من " قوم موسى ". ووطن القحطانيين الأصلي اليمن حيث تولى العرب الرياسة بعد قحطان.

أما العدنانيون ويقال لهم أيضا النزاريون أو المعديون وهم من صلب إسماعيل ابن إبراهيم وامرأته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي سموا بالعرب المستعربة لأنهم انضموا إلى العرب العاربة وأخذوا العربية منهم. ووطن العدنانيين الأول هو مكة التي اعتبرت المهد الأول للإسماعيليين ثم اضطرتهم عوامل قاهرة إلى التفوق والهجرة [2].

وهكذا نشأت بين البيئة الشمالية والبيئة الجنوبية فروق ميزت بين عرب الجنوب أهل المدر الذين كانوا يقطنون اليمن وحضرموت وما جاورهما من السواحل، وبين عرب الشمال أهل الوبر الذين كانت غالبيتهم تعيش في بيوت من الشعر في نجد والحجاز، لذلك تفوق عرب الجنوب على عرب الشمال في حضارتهم وثقافتهم وصناعتهم وأحوالهم السياسية.

وكذلك كانت لغة أهل الشمال تختلف عن لغة أهل الجنوب، فالأولى هي لغة القرآن الكريم، أي اللغة العربية، بينما ظلت الثانية لغة سامية قديمة، أي لغة سبأ ومعين أو حمير، وهي تمت بصلة ما إلى اللغة الحبشية، كما أنها تتصل أيضا باللغة الأكدية (البابلية القديمة) من حيث تراكيب الأسماء وتصاريف الأفعال والضمائر والمفردات، ثم تراجعت لغة أهل الجنوب أمام لغة أهل الشمال التي احتلت مكانها، وقد ساعدت على هذا التحول الأسواق الأدبية ومواسم الحج السنوية المنتظمة إلى الكعبة والعلاقات التجارية التي أنشأتها مكة مع غيرها من البلدان، حتى جاء الإسلام فسادت لغة الشمال وحلت محل لغة الجنوب التي لم

(1) انظر جدول الأمم (تك 10: 25 - 30).
(2) الدكتور جواد علي، " المفصل في تاريخ العرب "، ج1، ص 294 - 409.

يبق منها غير لهجتى مهرة وسوقطرة.

أما الكتابات التي استعملها العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام فتقسم إلى فرعين رئيسيين أيضا، تفرع كلاهما من خط طور سيناء، وهما الخط السامى الشمالى ويمثله الخط الفينيقى الكنعانى الذي يشمل عدة خطوط في آسيا الصغرى والخط العبرى القديم ثم الخط الآرامى وفروعه والهندى والنبطى والبهلوى والتدمرى والسريانى والعبرانى المربع المسمى (بالخط الأشورى)، والخط السامى الجنوبى الذي يشمل الحميرى والسبئى والمعينى واللحيانى والثمودى والصفوى، ويطلق أحيانا على بعض الخطوط الجنوبية كالسبئى والمعينى اسم الخط المسند لأن حروفه كلها عبارة عن خطوط تستند إلى أعمدة، ومن الخط السبئى اشتق الخط الحبشى، والمسند هو أعتق الأقلام التي عرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن. وكان قد نشأ في اليمن ثم انتقل منها إلى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ومنها تعلمه أهل الأنبار ومنهم تعلمته جماعة قامت بنقله إلى الحجاز.

10 ـ الزراعة والتجارة قوام الحضارات السامية في الشرق الأدنى:

قال تعالى في قرآنه الكريم:{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠]، فمنذ الأزل كان الماء ومازال مصدر الحياة والازدهار، فما قامت حضارة ذات شأن في تاريخ الإنسان القديم إلا كانت الزراعة وما يرافقها من مشروعات إروائية تحتضن تلك الحضارة، فتسير معها جنبا إلى جنب في مسيرة تطورها وتقدمها.ولا أدل على ذلك من ازدهار الحضارات القديمة على ضفاف الأنهار حيث الماء والأرض، العنصران الأساسيان لازدهار الحياة. وعلى هذا قامت في ربوع الرافدين - دجلة والفرات - وفى وادى النيل أقدم وأرقى حضارتين معروفتين في تاريخ العالم القديم، وقد كان لوادى الرافدين نصيب أكبر في الدور الذي لعبه في تأسيس أقدم الإمبراطوريات السامية في العالم وذلك في ظل أقدم نظام للرى الدائم عرفه التاريخ.

وقد أطلق العلماء على هذه الحضارات تسمية الحضارات الإروائية أو الحضارات النهرية، أى الحضارات التي تقوم على الزراعة المعتمدة على الإرواء لتمييزها عن الحضارة المطرية التي تعتمد في إروائها على الأمطار فقط. فكانت مراكز هذه الإمبراطوريات على ضفاف وادى الرافدين، فعواصم الأكديين والبابليين والكلدانيين كانت على ضفاف نهر الفرات وعاصمة الأشوريين على نهر دجلة، وكان وادى الرافدين الخصيب الموئل الرئيسى الذي

أسست على ضفافه أقدم المستوطنات الزراعية السامية فامتدت على طول النهر ابتداء من " كركميش " (- جرابلس) شمالا حتى بلدة " كيش " في جوار بابل جنوبا على مسافة حوالى 1400 كيلو مترا بطريق النهر وذلك لتوافر العناصر الأساسية للحياة فيه، وهى الماء والأرض وحرارة الشمس.

ويرى الأستاذ " كوتزه " : أن سيطرة الملوك الساميين القدامى امتدت إلى أبعد من ذلك جنوبا فشملت بلدة " نيبور " (نفر الحالية) البلدة السومرية المقدسة [1]، وكانت أبرز الحضارات التي ازدهرت على النهر حضارة " تل حلف " في منابع نهرى البليخ والخابور،وهى ترجع إلى 4800 سنة قبل الميلاد ثم حضارة العموريين في " مارى " وفى " باغوز " والأخيرة ترجع إلى أكثر من 5000 سنة قبل الميلاد، ثم حضارة " حمدة نصر " في العراق التي ترجع إلى سنة 3500 ق.م.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى التأكيد أن توسع الأعمال الزراعية والحاجة إلى تنظيم مشاريع الإرواء هى التي خلقت الحكومة، وقد عد تنظيم الرى للأغراض الزراعية عند كثير من الباحثين عاملا بالغ الأهمية في إحداث التماسك الاجتماعى والسياسى، ولا عجب في أن أقدم الشرائع المعروفة في العالم ظهرت في وادى الرافدين، وهى تعالج بالدرجة الأولى ما يترتب على الفلاح من واجبات وعلاقته مع الذين لهم صلة بالمسك الزراعى الذي يعتمد على الإرواء.

ومما لا جدال فيه أن حاجة سكان وادى الرافدين القدامى إلى توسع رقعة أراضيهم الزراعية بعد تكاثر عددهم هى التي دفعت بهم إلى إتقان هندسة الرى المشتملة على شق الجداول السيحية ونقل المياه إلى مسافات طويلة حتى تصل إلى الأراضى الزراعية فترويها سيحا. هذا فضلا عن إتقان وسائل رفع المياه إلى الأراضى المرتفعة مما أدى بهم إلى اختراع الدولاب واستخدام الطاقة المائية والحيوانية في تدويره. وقد رافق هذا الإتقان دراسة العوامل الطبيعية وتأثيراتها على الحياة الزراعية كمعرفة المواسم وخصوصا مواسم الفيضان وتتبع الأحوال الجوية والحركات الفلكية وما إلى ذلك من الأمور المتصلة بالزراعة كتعيين مواسم كل من الزروع الشتوية والصيفية. هذا كما أدى التوسع في الأعمال الزراعية إلى إتقان أعمال المسح بغية تحديد حدود ملكيات الأراضى وذرعة

(1) A.Goetz, "Early Kings of Kish", Jour. Of Cuneiform studies, XV, No. 3, p.111.

المساحات، ومن ضمن ذلك تثبيت قواعد خاصة للمقاييس الطولية والسطحية والحجمية وكذلك المكاييل والموازين.

وقد كان لاختراع المحراث أثر كبير في التقدم الزراعى، وقد تمخض عن كل ذلك تأسيس المدن على ضفاف الأنهار وتجمع السكان في مجتمعات مدنية تتولاها حكومات ذات سلطة تحكم بموجب أنظمة وقوانين تعالج الشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقد كان للدين دور رئيسى في تحديد العلاقات الشخصية والعامة في هذه المجتمعات. وكان تجاوز الإنتاج الزراعى المقدار المطلوب لسد حاجات الاستهلاك المحلى حافزا على التعامل مع البلاد المجاورة التي تحتاج إلى الأطعمة.

ومن هنا توطدت العلاقة التجارية لتصدير المنتوج الزارعى واستيراد الحاجات غير المتوفرة في البلد المصدر للحبوب كالمعادن والأحجار الكريمة وغيرها من المواد. ومما يدل على أهمية التجارة كعنصر أساسى في حياة المجتمع العربى القديم أن القبائل العربية رغم اختلافها ونزاعها الدائم المستمر فيما بينها قد اتفقت على تعيين أشهر يحرم القتال فيها وذلك لتأمين سلامة القوافل التجارية وتجار القبائل [1]، ولذلك يمكن القول بأن حضارة وادى الرافدين القديمة كانت قائمة بالدرجة الأولى على عاملين رئيسيين هما: الزراعة المعتمدة على الإرواء ثم على التبادل التجارى، وأوضح دليل على صلة الرى بالحضارة بصورة عامة أن الإله " أنكى " (آيا) إله المياه كان ذاته يعتبر إله الحضارة.

(1) الخربوطلى، العرب والحضارة، ص 23.

التصوير رقم (54)

نقش رائع من حفائر تل حلف

11 ـ حياة البداوة في الجزيرة العربية ونظمها [1] :

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الجزيرة العربية خلفت حضارة خاصة بها إلى جانب الحضارة النهرية حملت معها الطابع العربي السامي الأصيل إلى المناطق المجاورة، ولا تزال آثار هذه الحضارة تتمثل بحياة البداوة ونظمها المعمول بها في المجتمع البدوي حتى يومنا هذا، وقد يحسن أن نعرض هنا نبذة عن حياة البداوة ونظمها وتقاليدها التي ورثتها من العصور القديمة:

إن أولى صفات البدوي عيشة حياة ترحال دائمة قائمة على التنقل من مكان إلى آخر حيث توجد الآبار والعيون والمراعي، وهذه الصفة هي أساس حياته منذ أن وجد في موطنه الصحراوي، والبدوي مرتبط قبل كل شئ بالأسرة والقبيلة والنظم القبلية التي تستند إلى العرف والتقاليد التي ورثها عن أسلافه منذ أقدم الأزمنة، هذا مع تمتعه بحق الحرية الشخصية برغم صلته بأسرته وقبيلته، لذلك فوطنية البدوي وطنية قبلية، هي يحمي القبيلة والقبيلة تحميه، هذا ما يسمى بالعصبية. فالقبيلة أساس الحياة الاجتماعية في الصحراء التي فرضت هذا النظام من الحكم وما يرافقه من حقوق وواجبات بالنسبة لأفراد بعضها مع بعض.

وتتفرع القبيلة إلى فروع كثيرة لكل منها شيخ يرأسها ويعرف كل فرد نسبه وصلته بكل فرع من الفروع، ويتزعم شيوخ القبائل شيخ أرفع مقاما يعرف بشيخ المشايخ. وقد تظل الرئاسة في أسرة واحدة عدة أجيال ولكن يتوقف ذلك على موافقة القبيلة، وقد يعزل الشيخ وتنتخب القبيلة رئيسا آخر. أما سلطة الشيخ فتعتمد بالدرجة الأولى على صفاته الشخصية والثقة التي يتمتع بها بين أفراد عشيرته، ولشيخ المشايخ سلطة تقرير الحرب والسلم وعقد الاتفاقيات فهو صاحب الاختصاص في ذلك مع مراعاة مطاليب جمهور العشيرة وبعد استشارة مشايخ قبيلته.

وأكثر النزاعات في هذا المجتمع البدوي مبعثها تنازع البقاء في الجزيرة منذ القدم إذ تدور حول الماء والمرعى مما أدى إلى التناحر بين القبائل وغزو بعضهم البعض، ومع أن الصراع فرق البدو إلى شيع صغيرة متنافرة، ولكن نضالهم المشترك ضد الطبيعة القاسية قد قرب بعضهم من بعض وأدى إلى أن اعترف

(1) انظر كتاب الدكتور صالح العلي، " محاضرات في تاريخ العرب "، ص 104 - 142.

العرب جميعا بواجب واحد وغالوا في المحافظة عليه ألا وهو واجب الضيافة وحماية اللاجئ المستجير، وقد أطلق العرب القدماء على هذه الصفات لقب " المروءة " وهى تشمل الكرم والشجاعة معا.

ولما كان البدوى مسئولا عن حماية نفسه وحماية قطعانه في الصحراء المنعزلة فقد أصبح محاربا بالفطرة مقاتلا شجاعا لا يبزه أحد في استعمال القوس والحربة وغيرهما من السلاح، وقد أكسبت الطبيعة البدوى صفات تناسب بيئته، فهو ضعيف الوزن، نحيف البدن، قوى نشيط، يتحمل التعب والمشقات، وعظيم الصبر والاحتمال، يكفيه طعام قليل متواضع، وصفات البدوى هى نفس صفات الجنس السامى: الفطنة، والذكاء، والدهاء، وسرعة البديهة، والخيال المتوقد، ويتميز بالكبرياء وعزة النفس التي تبدو واضحة في عينيه السوداوين إلى جانب فصاحته " [1].

ويصف الأستاذ عبد الجبار الراوى خبير البادية المعروف مسكن البدوى فيقول:

" ليس في البادية مساكن ثابتة وإنما هناك بيوت شعر للسكنى ومنها البيت الصغير الذي لا يكاد يسع أصحابه، ومنها الكبير جدا ذو الأعمدة الذي يستوعب الأهل والضيوف وربما أدخلوا فيه (في الشتاء القارص حيث تتجمد المياه) صغار الغنم والإبل والخيل خوفا عليها من البرد، وبعض بيوت الشعر صغير مرفوع بعمودين فقط وبعضها مرفوع بثلاثة أعمدة وأربعة.

ويقسم البدو بيوت الشعر الكبيرة إلى شبه غرف مستقلة بينها الحواجز المصنوعة من الشعر أو القصب وتخصيص كل قسم لغرض معين فواحد للضيوف، والآخر للنوم، والثالث للطبخ. وكثير من البدو يصنعون بيوتهم بأيديهم وأيدى نسائهم غزلا ونسجا من شعر الماعز وأوبار الإبل... والبدوى راضى جدا بحالته... وما يزيد في ارتياحه وسروره أنه خفيف الحمل، يرحل في أى وقت شاء من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، أو من الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس إذا دعاه داع إلى المرعى والأرض، لا يمنعه من ذلك مانع، فيعمد إلى إبله يشد عليها رحاله، ويحملها ما عنده ويرحل إلى حيث يريد ويختار، هذا هو سر رضا البدوى، وتفضيله هذه الحياة الحرة على قيود القرى والمدن والانقياد

(1) دكتور على حسنى الخربوطلى، " العرب والحضارة "، ص 28.

لأحكام القوانين والأنظمة " [1].

إن القواعد في حسن الدعاوى في البادية قديمة توارثها الأبناء عن الآباء، وللبدوى حق طلب التحكيم عند أحد (العوارف) في حالة نزاعه مع خصمه، وأحكام (العوارف) أن تكون نافذة، لكن يجوز استئنافها عند (عوارف) آخرين أكثر شهرة إذا اتفق الطرفان على اختيارهم، والعوارف هم الخبراء من ذوى الاختصاص يختص كل واحد منهم بقضايا معينة يرجع إليه في الفصل فيها.

وكان العوارف يعرفون عند العرب القدمين باسم العرافين، وقد أفاضت الكتب بأخبار هؤلاء وأحكامهم [2]، " والفقه البدوى فقه فطرى يقوم على العرف والعادة، تمشت عليه القبائل منذ أقدم الأزمنة حتى أن بعض قضاتهم كان يرجع في قضية فصل فيها شيخ قبل مائة سنة قبل أن يفصل في قضية مشابهة. وربما اختلف هذا الفقه عند غيرهم اختلافا بسيطا في الأصول فقط، ولكنه يتشابه من حيث الأساس. ويمكن تصنيف الفقه البدوى إلى فقه عام، وفقه خاص. ويقسم الفقه العام إلى خارجى، وعندهم منه إعلان الحرب، وحقوق الغزاة والصلح. وفقه داخلى، وعندهم منه إدارة العشيرة الداخلية " [3].

والجزيرة العربية نزلها الساميون من العرب منذ أقدم الأزمنة وكان جدب الجزيرة العربية وخشونة الحياة فيها من أهم عوامل نجاتها من الاستعمار والنفوذ الأجنبى، ولما كثر عدد السكان وضاقت بهم الجزيرة خرجوا إلى البقاع المنتشرة على مشارف الجزيرة العربية وطبعوها بالطابع السامى، ولكن معظم هؤلاء العرب احتفظوا ببداوتهم ولم يقبل على الزراعة والتجارة إلا نفر قليل منهم. كانت الجزيرة العربية متوسطة بين الشرق والغرب وكانت قوافل العرب التي تنقل البضائع التجارية تجوب أرجاء العالم القديم مما أدى إلى اتصال العرب بمعالم الحضارات المختلفة فتأثروا بها إلى حد ما ولكن دون أن يفقدوا خصائص التراث البدوى الصحراوى الذي هو أساس الحضارة السامية.

ويحدثنا علماء الاجتماع عن هذا التراث فيذهبون إلى أنه يمثل ثقافة اجتماعية قائمة بذاتها لها طابعها ومقدساتها الخاصة بها، وهى المعروفة بالإنجليزية بمصطلح

(1) " البادية "، الطبعة الثانية، ص 235 - 236.
(2) المرجع السابق، ص 278.
(3) المرجع السابق، ص 280.

(Culture)، كما يحدثنا أخصائيو علم الاجتماع عن تأثير البداوة في حياة المجتمع المتمدن بحيث يصبح البدوى المتحضر متقمصا شخصية مزدوجة، فالشعب الذي هجر حياة البداوة وأخذ بسبل الحضارة وبقى في حياته الاجتماعية تحت تأثير النزعة القبلية البدوية فصار يعانى صراعا اجتماعيا ونفسيا على توالى الأجيال، فهو من ناحية لا يستطيع أن يطمئن إلى قيمه الحضرية زمنا طويلا، لأن الصحراء تمده بين كل آونة وأخرى بالموجات التي تقلق عليه طمأنينته الاجتماعية، ولا يستطيع من الناحية الأخرى أن يكون بدويا كابن الصحراء لأن الحضارات المنبعثة من وفرة مياهه وخصوبة أرضه تضطره إلى تغيير القيم البدوية الوافدة إليه لكى يجعلها ملائمة لظروفه الخاصة [1]، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على صحة كون الجزيرة العربية منبع الهجرات السامية إلى الهلال الخصيب وبذلك تعتبر بحق مهد الحضارة السامية العربية.

12 ـ دور الجمال في تأمين المواصلات الصحراوية:

وقد لعب الجمل بعد تدجينه دورا مهما في تأمين المواصلات الصحراوية وتنمية الصلات التجارية في جميع أنحاء الشرق الأدنى، إذ كانت الإبل عماد حياة البدو في الصحراء، يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها، ويكتسون من أوبارها، ويقومون بها ثروتهم، ويفتدون بها أسراهم، ويمهرون بها في الزواج، ولجميع هذه الأسباب اهتموا بتربية الإبل وكيفوا حياتهم وفقا لحياتها، ورحلوا من مكان إلى آخر من أجلها، وبنوا كثيرا من لغتهم عليها، وضربوا فيها الأمثال الكثيرة، وتغنى الشعراء في وصفها وحدائها، وكانت لدى العرب أيضا الخيل يعنون بها، ولكنها كانت متاع المترفين، بينما كانت أفبل متاع العرب جميعا [2].

والإبل عند البدو أصناف منها الأصلية ومنها ما يقتصر استخدامه في السفر وحمل الأثقال وتعتبر جمال الحسا من أحسن الجمال. والجمال الأصلية عند البدو هى العمانية والحرة والبطينية والأرضية. ويدعى القطيع الأبيض من الجمال بالمفاذير أما النياق البياض فتدعى بالوذة وهناك قطعان سوداء تدعى بالشروف، وبصورة عامة فإن الجمال البيضاء والفاتحة تأتى من الشمال والسوداء والغامضة تأتى من الجنوب، وللضفير وعنزة فخر بقطعانها البيضاء أما عتيبة فجمالها سوداء بينما تفضل العوازيم

(1) الدكتور على الوردى، " دراسة عن طبيعة المجتمع العراقى "، الفصل الأول الصراع بين الحضارة والبداوة.

(2) الخربوطلى، " العرب والحضارة "، ص 29.

والمطير الجمال الحمراء وقد يفخر المطير أيضا بالشروف. وتدعى الناقة المستعملة للركوب الذلول.

ولكل قبيلة وشم خاص بجمالها وأبالها فيضع آل سعدون في المنتفك خلقه دائرية على الخد الأيسر للجمل أما الضفير فتضع خطا عموديا في الرأس الأعلى للحيوان[1].

ويستفاد من النصوص القديمة أن الجمال استخدمت منذ زمن بعيد كواسطة نقل صحراوية تربط الجزيرة العربية بأجزاء منطقة الهلال الخصيب التي نزح إليها أهل الجزيرة العربية مما سهل الاتصال بين الوطن الأم والمستوطنات الجديدة، وبذا كان للجمال دور هام في تأمين المواصلات الصحراوية وتنمية الصلات التجارية في جميع أنحاء الشرق الأدنى. وقد احتكر البدو ورعاة الإبل وسائل النقل بين العراق وبلاد الشام وبين الشام وبلدان البحر المتوسط وبلاد الحجاز وشمال الجزيرة وجنوبها. وقد مكنهم ذلك من مد نفوذهم وبسط سيطرتهم على طرق المواصلات والمدن التي تمر منها القوافل، الأمر الذي أتاح لهم المجال لجمع ثروة كبيرة من اقتناء قطعان الجمال. لذلك كانت بعض القبائل على تقتنى سوى الإبل التي عليها مدار معيشتها وليس لها من الغنم ما لا يكفيها وضيوفها من لحومها.

وصفات الجمل تؤهله لسكنى البرية، ففى معدته تجويف مقسوم إلى غرف أو حويصلات تمتلئ عند شربه ماء يكفيه مدة تختلف بين العشرين والثلاثين يوما، وأما طعامه فأغصان الأشجار والشوك والعشب... إلخ. وهو يحمل من 100 إلى 160 رطلا ومعدل سيره ثلاثون ميلا في اليوم وهو يعمر من الثلاثين إلى الأربعين سنة، ولحم الجمل ولبنه ووبره وجلده نافع للإنسان لذلك يعد اقتناؤه من الغنى والثروة.

ومما يدل على وجود الجمال في الجزيرة العربية منذ عصور واغلة في القدم عثور المنقبين على تصوير الجمل منقوش على صخرة في جبل " طبيق " عند الحدود الجنوبية الشرقية للأردن في الموقع المسمى " قلوة " (Kilwah) يرجع تاريخه إلى العصور الحجرية (العصر الميسوليثى) ويمثل هذا التصوير حملا ذا سنام واحد وهو نفس نوع جمال الجزيرة العربية حاليا. كما ورد عن عثورهم على صورة جملة لهجين وراكبه ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وظهور

(1) " البدو والقبائل الرحالة في العراق " تأليف مكى جميل، 1956، ص 185 - 190.

الراكب في الصورة يدل على أن الجمل دخن في هذه المناطق منذ زمن بعيد. وقد عثر أيضا على تصاوير للجمل في النقوش المصرية ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد [1].

وقد أثبت العلماء وجود الجمال بنوعيها، ذى السنام والسنامين، في زمن الأكديين (القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد) وقد استخدموه في تنقلاتهم الصحراوية، وأن تسمية " جملو " و " إيبلو " الأكدية مأخوذة من كلمتى " جمل "، و " إبل " العربيتين، وقد عرف الجمل عند السومريين أيضا وكانوا يطلقون عليه اسم (حمار أرض البحر) وأرض البحر عندهم صحراء سواحل الخليج، وقد عثر أيضا على ألواح طينية نقش عليها صورة الجمل في " الورفاء " في جنوبى العراق، وفى " عقرقوف " (دور كوريكالزو) عاصمة الكاشيين.

ويؤخذ من مدونات التوراة أن من جملة مقتنيات إبراهيم الخليل كانت الجمال[2]، وكما أن هذه المدونات تدل على أن الإسرائيليين كانوا يستخدمون الجمال في تنقلاتهم بين فدان أرام في منطقة حران وفلسطين [3]، وكانت في جملة قطعان يعقوب الإبل [4]، وقد أشارت التوراة إلى استخدام المديانيين والعمالقة للجمال في أخبار قتالهم مع الموسويين [5]، وقد ورد في سفر أيوب ما يشير إلى أن أيوب كانت له سبعة آلاف جمل [6].

إن أكثر ما كان يستخدم الموسويون في تنقلاتهم الحمير، وكان الجمل معدودا من الحيوانات غير الطاهرة بحسب الشريعة اليهودية [7].

ويقول الباحثون: أن الجمل كالحصان يرجع أصله إلى قارة أمريكا وهو وحشى وقد هاجر على تلك الحال إلى شمال شرقى آسيا قبل ملايين من السنين عندما كانت أمريكا وآسيا قارة واحدة، ومن هناك وصل إلى شمال غربى

(1) Hitti, "History of Syria", PP. 52 - 53.

(2) (تك، 12: 16، 24: 35).

(3) (تك، 24: 61، 63، 64).

(4) (تك، 30: 43، 31: 17).

(5) (قض، 6: 5، 7: 12، 8: 21، 26)؛ (1 صم، 15: 3، 27: 9، 30: 17).

(6) (أيوب، 1: 30، 42: 12).

(7) (لا، 11: 4)؛ (تث، 14: 7).

الجزيرة العربية وإلى جنوبى سورية وذلك عن طريق كشمير والهند [1].

التصوير رقم (55)

تمثال من الطين المشوى يمثل فتاتين عربيتين شاعرتين تمتطيان جملا

وتشاهد الفتاتان في هودجهما المريح إحداهما تنفخ بالأرغول والثانية تضرب على الطبلة، وهذا التمثال محفوظ في متحف اللوفر في فرنسا ويرجع زمنه إلى عهد الرومان ويظهر أن هذا المنظر كان محببا عند السوريين في ذلك الزمان.

وقد أعد المستر فورنس صاحب الدراسات العلمية الشهيرة بحثا مستفيضا عن تاريخ ظهور الجمال في الجزيرة العربية، فيقول في ختام بحثه: " إن الإحصاءات الأركيولوجية التي بين أيدينا تسوقنا إلى أن نستنتج أن الجمل دجن في أواسط آسيا في أواخر العصر الحجرى النيوليثى (7000 - 5000 ق.م) وربما دجن واستخدم في الجزيرة العربية قبل ذلك من فصائل أخرى من الجمال الوحشية [2].

ويرى ألبرايت أن الجمل لم يدجن ولم يستخدم في أغراض النقل في جزيرة

(1) Hitti, "History of Syria", P. 52.

(2) R. J Forbes, "The coming of the camel", Stydies in Ancient Technology, Vol. II. Leiden, 1955, pp. 187 - 203.

العرب إلا في أواخر النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد، أما ما قبل ذلك " فقد كان العربى لا يستطيع اجتياز البوادى واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة التنقل عنده لا يتحمل ولوج البادية ولا يستطيع أن يعيش فيها وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية قبل الميلاد وقبل وقت تدجين الجمل رعاة في الغالب، وسائط تنقلهم الحمير، ولم يكونوا قد طرقوا البوادى أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد " المفصل في تاريخ العرب " للدكتور جواد على 1981 جاء هذا الرأى مخالفا لما توصل إليه الباحثون. أما نحن فنرجح الأخذ برأى الباحثين الآخرين الذين يرجعون وجود الجمل في الجزيرة العربية إلى زمن أبعد بكثير مما أورده ألبرايت.

13 ـ الخيول العربية في جزيرة العرب:

اشتهرت جزيرة العرب بالخيول العربية التي امتازت بوفرة وجودة نوعها، فيمتاز الجواد العربى بجماله وحسن تركيبه وطباعه وشدة صبره وتحمله الجوع والعطش وشدة البرد والحر، فلا يدانيه بهذه الصفات أى جواد من عروق الخيول الأخرى، والجواد العربى سريع الجرى لا تسبقه غير خيل السباق الإنجليزية الأصلية المعروفة بـ (الثوربورد) والتى يجرى في عروقها دم الخيول العربية، والسلالات الأصلية من الخيول العربية هى ثمرة ما جادت به جزيرة العرب التي تؤول إليها كافة أنساب الخيول العربية الممتازة في العالم، فلعشائر شمر في الشمال وفى الشمال الغربى وعنزة في الغرب والصفير، وآل سعدون في الجنوب وفروع هذه العشائر وغيرها يؤول الفضل في تربية السلالات العريقة والمحافظة عليها ومنها انتشرت إلى مختلف الأقطار.

14 ـ اللغة العربية هى اللغة الأم لجميع لهجات الأقوام السامية:

والمسلم به بإجماع الباحثين أن القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية كانت كلها تتكلم لغة واحدة هى اللغة العربية الأصلية قبل أن تتفرق " وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة [1] ". ثم تفرع من هذه اللغة عدة فروع الطبع كل منها بطابع المكان والبيئة الجديدة على مقتضى ناموس الارتقاء، وهكذا تطورت اللغة الأصلية تتطور لهجات الأقوام الناطقة بها في مستوطناتها

(1) (تك، 11: 1).

الجديدة حتى أضحت هذه اللهجات مغايرة لأصلها، ولكنها مهما تباعدت بألفاظها وتشعبت تراكيبها فإنها بقيت محتفظة بالخصائص الأصلية التي تتميز بها لأنها ترجع إلى أصل واحد مشترك. وقد سمى العلماء هذه اللهجات باللهجات أو اللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح تمييزا لها عن اللغات الآرية والطورانية. وتتميز صفات اللغة السامية في كونها مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف ثابتة وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات وعلى هذه الحركات يتوقف نوع الدلالة. ولما كان العلماء قد صاروا يعتمدون على أصل اللغات في تعيين صلات الأقوام بعضها ببعض، فقد قسم بعض علماء الساميات (اللغات السامية) إلى أربع مجموعات هى المجموعة السامية الشرقية، ومنها الأكدية والبابلية والأشورية، والمجموعة الشمالية ومنها العمورية والأرامية، والمجموعة الغربية، ومنها الكنعانية والفينيقية والموآبية والعبرانية، والمجموعة الجنوبية، ومنها المعينية والسبئية والأثيوبية والعربية والأمهرية.

ويرجح عدد من الخبراء أن اللغة التي يتكلم بها بدو الجزيرة العربية حاليا هى أقرب جميع اللهجات إلى اللغة العربية الأصيلة التي كان يتكلم بها أبناء الجزيرة قبل أن تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة، وذلك على أساس أن هؤلاء بقوا منعزلين في صحرائهم دون أن يختلطوا بالأقوام الأخرى الغريبة في لغاتها وقومياتها. وفى هذا الموضوع.

يقول الأستاذ أولمستيد: " إن البدو العرب كانوا أول من تكلم باللغة السامية، وإذا أردنا أن نتفهم الخصائص الأصلية لهذه المجموعة من اللغات السامية على حقيقتها فعلينا أن نتجه إلى العربى ابن البادية الذي يجوب شمال جزيرة العرب، لأن هؤلاء هم وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة دون أن يطرأ عليها أى تغيير " [1].

وممن أيد ذلك من المحققين المستشرقين الباحث المعروف عبد الله فيليبى الذي قام بدراساته المسهبة لأحوال جزيرة العرب، والذى يقول: " أن اللغة العربية التي يعترف الخبراء في كونها أقرب من جميع اللغات السامية إلى اللغة الأم الأصلية التي اشتقت فيها جميع هذه اللغات هى على أغلب الاحتمالات أقدم لغة في العالم مازالت حية حتى يومنا هذا " [2].

(1) أولمستد، " تاريخ فلسطين "، ص 36.
(2) المستر فيليبى، " تاريخ العرب قبل الإسلام "..

ويرجع الفضل إلى القرآن الكريم الذي حافظ على أصل اللغة الأم - لغة الضاد - وهى مازالت اللغة التي يتكلم بها أكثر من ثمانين مليون نسمة في الأقطار العربية العديدة، وذلك رغم تعرض البلاد إلى غزوات الكثير من الأقوام الغريبة في ثقافاتها ولغاتها قبل ظهور الإسلام. فقد صمدت الثقافة العربية السامية أمام جميع هذه التيارات مما يدل على أن التراث العربى العريق في حضارته وحيويته كان أقوى وأمضى من جميع الثقافات الأخرى التي استوطنت الشرق الأدنى وهو ما يزال سائدا في جميع البلاد المعروفة بالبلاد العربى حتى يومنا هذا محتفظا بخصائصه دون أن يندمج أو يزول من الوجود.

وفى تعليق للدكتور جواد على حول هذا الموضوع يقول: " وبالجملة إن هناك جماعة من المستشرقين ترى أن اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللغات السامية الأخرى، هى أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وأكثرها ملائمة للبحث، لأنها لغة لم تختلط كثيرا باللغات الأخرى، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال، ثم إنها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الأعراب، على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللغات، ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيرا في الوقوف على خصائص السامية القديمة ومزاياها [1].

ويرى " نولدكه " الخبير في اللغات السامية، مثل هذا الرأى إذ يقول: " إنه لمن الضرورى عند القيام بدراسة مقارنة بين اللغات السامية البدء باللغة العربية، وذلك بأن ندون خصائصها ومميزاتها وقواعدها وطريقة نطق ألفاظها وما إلى ذلك ومن ثم مقارنة هذه النتائج مع ما يقابلها في بقية اللغات السامية حتى نقف على ما بين تلك اللغات من مفارقات ومطابقات " [2].

وقد أيده في هذا الرأى " دى غويه " إذ أنه " يرى أن اللغة العربية، من بين جميع اللغات السامية، هى أقربها إلى اللغة السامية الأم وأكثرها اتصالا مباشرا بها " [3].

---

(1) الدكتور جواد على، " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 255 - 256.

(2) الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج7، ص 21.

(3) الإبراشى، " الآداب السامية "، ص 10.

ومثله يؤيد الدكاترة حتى وجرجى وجبور هذا الرأى بما نصه: " إن السبب في كون عرب الجزيرة ولاسيما البدو بنوع خاص خير من يمثل السلالة السامية من النواحى البيولوجية والنفسية والاجتماعية واللغوية، يعود إلى انعزالهم الجغرافى واتساق الحياة المطرد في الصحراء، فكان النقاوة السلالية هى المكافأة التي تمنحها البيئة المقفرة الشديدة النكرات كتلك التي في أواسط جزيرة العرب، ولقد أصاب العرب في تسمية بلادهم جزيرة العرب، فهى جزيرة حقا تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث والرمال من جهتها الرابعة وتعتبر هذه الجزيرة مثلا للعلاقات التي لا تنقطع بين السكان والتربة. ولسنا نعرف فاتحا أو غازيا نجح في اختراق الحواجز الرملية لهذه الجزيرة وفى تثبيت قدميه في تلك البلاد. أجل لقد ظل سكان الجزيرة كما هم طيلة أزمان التاريخ " (1).

ويؤيد الدكتور ولفنسن أيضا هذا الرأى إذ يقول: " يؤكد العلامة أولسهوزن أن اللغة العربية هى أقرب جميع لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة ودعم رأيه هذا بجملة شواهد وأدلة ارتاح لها كثير من علماء الإفرنج... ونحن إذا نظرنا إلى المعضلة من ناحية القرابة بين إحدى اللغات السامية واللغة الأصلية يمكننا أن نقول أن اللغة العربية تشتمل على عناصر لغوية قديمة جدا بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم بعيدة عما يتوارد عليه من تقلبات وتغيرات يكثر حدوثها وتختلف نتائجها اختلافًا مستمرا في البلدان العمرانية " (2).

ومع أن الأستاذ أولينارى يؤيد كون الجزيرة مهد اللغات السامية وأن اللغة العربية تمثل اللغة السامية النقية لعدم تأثرها بالعناصر الأجنبية إلا أنه يرى بأن اللغات السامية لم تأخذ بساميتها الخالصة إلا بعد خروجها من موطنها الأصلى أى بعد احتكاكها مع خليط من السكان غير الساميين نتيجة للهجرات من جزيرة العرب فيقول: " يبدو أن اللغة العربية تمثل إلى حد معين اللغة السامية النقية لأنها حافظت على كونها اللغة الأقل تأثرا بالعناصر الأجنبية، ولكننا غالبا ما نجد بأنه على الرغم من اختفاء التراكيب العربية في العبرية والأشورية بعد أن كانت ظاهرة فيها بوضوح تام فإن آثارها باقية في العربية... وقد كان انتشار اللغات السامية من الجزيرة العربية كمركز لها، وهذا لا يحتم بأن الجزيرة العربية كانت موطنا للجنس السامى، أو أن اللغات السامية لم تكن مقتبسة من اللغة الحامية أو

(1) الدكاترة حتى وجرجى وجبور، " تاريخ العرب "، الطبعة الرابعة، ص 8.
(2) ولفنسون، " تاريخ اللغات السامية "، ص 7.

غيرها. غير أن الشئ الواضح هو أن الجزيرة العربية كانت الموضع الذي ظهرت فيه الخصائص التي تتميز بها اللغات السامية، إلا أننا لا يمكننا اعتبار اللغة ظاهرة بساميتها الخالصة إلا بعد خروجها من موطنها الأصلى، إذ نستطيع أن نحدد بثقة وإلى حد بعيد تاريخ الفترة أو التاريخ المضبوط في بعض الأحيان لظهور إحدى اللغات السامية خارج الجزيرة العربية، هذا في حين أنه ليس لدينا أى دليل يقودنا إلى تحديد تاريخ ظهور اللسان السامى الأول في الجزيرة.

ويدلنا التاريخ على أن انتشار اللغات السامية مرتبط بهجرات الساميين المتتابعة من جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، وأرض كنعان، وسورية، والحبشة، وشمال أفريقيا. أما تكوين اللغات خارج الجزيرة كانت تحت تأثير التداول بين خليط من السكان غير الساميين مما أدى إلى حدوث تغييرات لفظية وتعديلات لغوية فضلا عن إهمال القواعد النحوية، كل ذلك أدخل عدة إضافات على مفردات اللغة " [1].

15 ـ سامية أم عربية:

إن تسمية " السامية " أطلقت على الشعوب التي زعم أنها انحدرت من صلب سام ابن نوح، وكان أول من أطلقها بهذا المعنى العالم النمساوى شلوتزر عام 1781 للميلاد فشاعت منذ ذلك الحين وأصبحت عند علماء الغرب علما لهذه المجموعة من الشعوب وسرت إلى المؤرخين العرب وباحثيهم بطريق الاقتباس والتقليد، على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخى أو إلى أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية، إذ تعتبر أكثر ما تعتبر الحدود الجغرافية والعلاقات السياسية [2]. فكتبة التوراة مثلا حشروا في السامية شعوبا لا يعدها العلم الحديث من جماعة الساميين مثل العيلاميين واللوديين وأقصوا جماعة كان ينبغى إدخالها في زمرة الساميين مثل الفينيقيين والكنعانيين، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أن الكنعانيين هم الساميون العرب الأصليون سكان فلسطين الأوائل[3].

ثم إن اصطلاح السامية يشير إلى نسب، لذلك ذهب بعض الباحثين إلى تخطئة تسمية السامية وتأكيدهم أن تسمية " العربية " هى أكثر تمشيا مع الواقع

(1) أوليسارى، " قواعد المقارنة للغات السامية "، ص 605.
(2) نولدكه، " اللغات السامية "، الترجمة العربية، ص 8.
(3) (تك، ص 15).

التاريخ والعلمى، لأن اسم العرب ورد منذ القديم في الكتابات البابلية والأشورية، ثم أطلق الفرس واليونان والرومان اسم العرب على سكان جزيرة العرب منذ الألف الأولى قبل الميلاد [1].

وأحسن من عبر عن الرأى القائل بوجوب تسمية الأقوام العربية وكل من سكن الجزيرة العربية أو خرج منها بالعرب، الباحث والمؤرخ المعروف الدكتور جواد على، فقال في بحثه عن تاريخ العرب قبل الإسلام ما هذا نصه:

" إنى سأطلق لفظة (عرب) على جميع سكان الجزيرة بغض النظر عن الزمان الذي عاشوا فيه، والمكان الذي وجدوا فيه، سواء أكانوا سكنوا في الأقسام الشمالية أم في الأقسام الوسطى من جزيرة العرب أم في الأقسام الجنوبية، فكل هؤلاء في نظرى (عرب) وعرب علم لقومية خاصة ومصطلح ظهر متأخرا في النصف الأخير من الألف الأولى قبل الميلاد، وتركز وتثبت بعد الميلاد خاصة، وقبيل ظهور الإسلام على الأخص. وعلى هذا فالذين عاشوا قبل الميلاد بقرون عديدة وبألوف السنين، هم (عرب) بالطبع وإن لم يدعوا (عربا) لأن هذه الكلمة لم تكن معروفة بهذا المعنى في أيامهم ولكنهم عرب أصالة ومن أحق وأجدر بأن نطلق عليه هذه اللفظة منهم، هم سكان الجزيرة وأصحابها الشرعيون مهما اختلفت لهجاتهم وتباينت لغاتهم، وتعددت أماكنهم هم الأصل، ومن جاء بعدهم الفرع، وليس الفرع كالأصل.

" ولعلنى لا أكون مخطئا ومبالغا إذا قلت أن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح " سامى " و " سامية " بـ " عربى " و " عربية " فقد رأينا أن تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس التقارب في اللهجات وعلى أساس فكرة الأنساب الواردة في التوراة، وهى كما قلت آنفا، فكرة لا تستند على أسس علمية، وإنما قامت على بواعث عاطفية، على أساس حب الإسرائيليين أو بغضهم لمن عرفوا من الشعوب، أما مصطلحنا " العرب " الذي يقابل الساميةفهو أقرب - في نظرى - إلى العلم.. ففى العرب لهجات ولغات، كما أن بين الساميين لهجات ولغات... وليس ببعيد ولا بغريب عن العلم والمنطق أن نعد الساميةعربية لكونها ظهرت في جزيرة العرب ونحن نعلم أن كثيرا من العلماء يرون أن جزيرة العرب هى مهد الساميين.

ولما كان العلماء قديما وحديثا قد أطلقوا على هذه الأرض التي ظهرت فيها

(1) محمد عزة دروزة، " تاريخ الجنس العربى "، ج1، ص 18.

شعوب كثيرة ولغات عديدة اسم " جزيرة العرب "، أو " شبه جزيرة العرب " غير مراعين في ذلك تعدد المواضع أو اللغات واللهجات أو القبائل، ولا تاريخ ظهور لفظة " العرب " إلى عالم الوجود، جاز لنا بل وجب علينا الآن - على ما أرى - أن نستبدل مصطلح (السامية) بمصطلح " العربية " فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمين: عامل القرابة اللغوية والأصل اللغوى، وعامل وحدة المكان. فسواء أظهرت السامية في اليمن أم في أى موضع آخر من جزيرة العرب أم في العراق، فإن كل هذه المواضع هى من شبه جزيرة العرب، لأن البادية والهلال الخصيب هما من الأقسام التي تعد اليوم من بلاد العرب، وثقافة سكانها ثقافة عربية، ولغتهم السامية هى اللغة العربية، وهى أوسع لغة سامية بقاية على وجه الأرض، ولذلك فهى اللغة الكبرى التي تمثل المجموعة اللغوية السامية سواء أكانت قديمة أم حديثة، ويجدر أن لا نتحدث باسم السامية في القرن العشرين... وإذا وافقنا على إقرار هذا الاصطلاح نكون قد تقربنا نحو العلم، وابتعدنا عن الأساطير، أسطورة انحدار الساميين من صلب رجل هو سام، وحرى بالعلم أن يبنى أحكامه على حقائق علمية، وأن يبتعد عن القصص والأساطير " [1].

ويذهب أكثر المؤرخين الفرنج إلى أن العرب والساميين شئ واحد، فهذا سبرنجر (Sprenger) على سبيل المثال يقول أن جميع الأقوام التي تنتسب إلى العرق السامى كالأشوريين والبابليين والفينيقيين والعبرانيين والأدوميين وغيرهم من الأقوام التي كانت تضطر إلى النزوح والهجرة من الجزيرة العربية كلما امتلأت بهم جزيرتهم أو أجدبت بسبب انحباس المطر أو كلما تشوقت تلك الأقوام لإيجاد أرض تكون أخصب من أرض جزيرتهم العربية هم عرب [2].

وفى تعليق له على نظرية شلوزر يقول الأستاذ أولينارى:

" إن نظرية شلوزر تقوم على أساس من التعاقب الدورى كما هو منصوص عنه في جدول الأمم والذى يجعل من أرام أرفكشار ولدين لسام [3]، ومن ثم يجعل أرفكشارا جدا لإبراهيم [4]، بحيث يصبح الإسرائيليون ساميين باعتبارهم انحدروا من صلب إبراهيم ومثلهم العرب الذين يدّعون أنهم أولاد إسماعيل، وإذا

(1) الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج2، ص 287 - 288.
(2) دكتور على حسنى الخربوطلى، " العرب والحضارة "، ص 13 - 14.
(3) (تك، 10: 22).
(4) (تك، 11: 12 - 26).

تفحصنا هذه الأنساب بدقة تبين لنا أن ربط هذه الجماعات بأرومة واحدة إنما جاء طبقا لعلاقات سياسية، وعلى هذا الأساس اعتبر جدول الأمم عيلاما ولودا أخوين لأشور من أبناء سام [1]. ومما لا شك فيه أن تعريف تلك الجماعات بالرموز (كالأحرف والأرقام) هو الأفضل وذلك لتجنب بعض التسميات كالسامية والهندو - أوربية وغيرها. ونحن وإن كنا لا نستطيع تبرير إطلاق السامية على تلك الجماعات بصورة مطلقة إلا أن هذه التسمية تبقى مصطلحا شائعا ومقبولا " [2].

16 ـ العرب مخترعوا الحروف الهجائية «الأبجدية»:

لقد اعتبر العلماء اختراع الحروف الهجائية (الأبجدية) من أعظم المخترعات التي أوجدها العقل البشرى بل من أجل البركات التي هبطت على البشرية في مسيرتها نحو التقدم الحضارى. ثم تأتى بعدها البركة الروحية في الدعوة لعقيدة التوحيد والاهتداء إلى عبادة الإله الواحد. والفضل في كلا الحادثين كما ثبت يرجع إلى الثقافة العربية التي نمت وازدخرت على يد الأقوام العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في الهلال الخصيب منذ أقدم الأزمنة. ومن المتفق عليه الآن أن الكنعانيين كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة ومنهم انتقلت إلى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم بين سنة 850 و 750 ق.م، إلى الإغريقية واللاتينية [3]، وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربى " الألف باء " (Alphabet)، وقد احتفظ اليونانيون بنفس الترتيب الذي وضعه الفينيقيون من حيث تسلسلها ومن حيث طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين وفق الطريقة الفينيقية الأصلية. والفينيقيون والكنعانيون تسميتان لمسمى واحد [4].

وقد ظل أكثر العلماء الذين قاموا بدراسة نشوء الحروف الهجائية يرون أن الأبجدية الفينيقية هى أول الأبجديات وأقدمها، وأن الفينيقيين هم أول من استعمل طريقة الكتابة بها وقد أخذوا أصولها من الكتابة الهيروغليفية المصرية، بل وعثر على كتابة بالأحرف متصلة بالكتابة المصرية أقدم بكثير من الأبجدية الفينيقية، وهى الكتابة التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء في موضع يسمى " سرابيط

(1) (تك، 10: 22).
(2) أوليسارى، " القواعد المقارنة للغات السامية "، ص 3.
(3) T.H. Gaster, "Canaan" Enc. Brit. 1965, Vol, 4, p, 728.
(4) انظر ما تقدم عن الكنعانيين والفينيقيين في الفصل الأول.

الخادم " ويعود تاريخها إلى سنة 1850 ق.م [1]، وقد أطلق عليها اسم " كتابة طور سيناء " أو " الأبجدية الطور سينائية " وهذه الكتابة البسيطة جاءت باللهجات الكنعانية القديمة وتعد حلقة الوصل بين الهيروغليفية التصويرية والأبجدية.

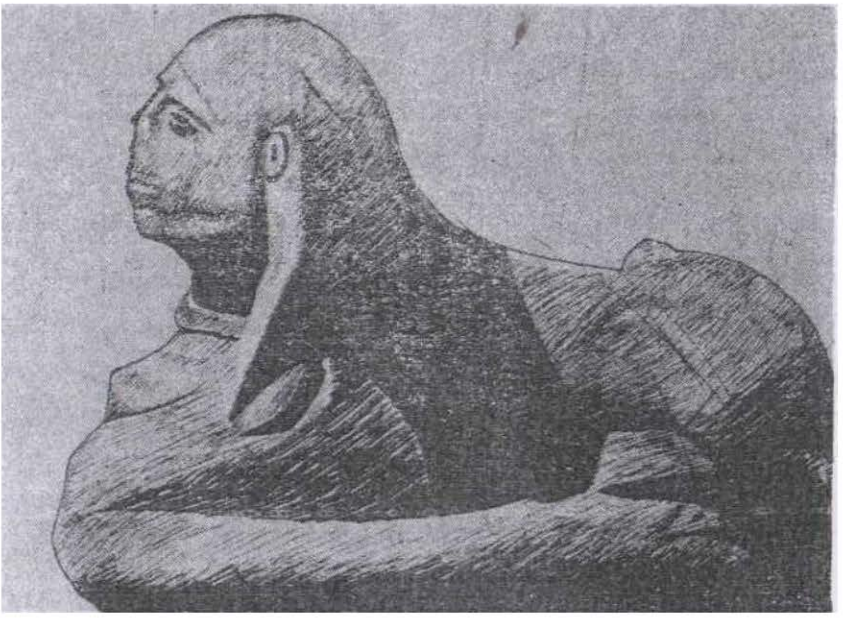

التصوير رقم (56)
" أبو هول "

عثر عليه في المعبد المصرى عند سرابيط الخادم بجوار مناجم الذهب المصرية القديمة في سيناء عليه أقدم كتابة كنعانية بالحروف الأبجدية وهى تمثل اسم الآلهة " بعل إيث " (الإلهة حتحور السامية). وهذه الكتابة البسيطة غير المنتظمة تشكل حلقة الوصل بين الهيروغليفية والأبجدية (عن " قصة توراة ").

(1) اختلفت الآراء في تعيين تاريخ هذه الكتابة فبعضهم حدده في التاريخ المذكور أعلاه غير أن البعض الآخر يرى أن تاريخ هذه الكتابة لا يتعدى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد وهذا هو رأى الأستاذ طه باقر أيضا.

وقد عثر عليها في المعبد المصرى القديم عند مناجم الذهب المصرية في سيناء وهى تحمل اسم الإلهة " بعل إيث " الإلهة السامية العربية المعروفة باسم الإله " حتحور " [1] ثم وجد عدد من هذه النماذج بنفس الأحرف في سيناء أيضا، كما وجد من هذه النماذج أيضا في جنوب فلسطين و " شكيم " و " لخيش " وقد كتبت كل هذه النماذج باللهجة الكنعانية القديمة، ويؤكد دايرنجر " أن مصدر اختراع الأبجدية يرجع إلى منطقة فلسطين وسورية وهى تنفرد بين جميع مناطق الشرق الأدنى في هذا الاختراع الذي يمثل شبه جسر يجمع بين حضارتى مصر وبلاد الرافدين " [2].

(1) الإله حتحور هى إلهة السماء عند المصريين وكانت تلقب بعين شمس وهو اللقب الذي كان يعطى لكثير من الآلهات الكبرى (انظر كتاب أرمان)، " ديانة مصر القديمة "، ص 25، وصورة حتحور على ص 37.

(2) Diringer, “Writing”, P. 120.

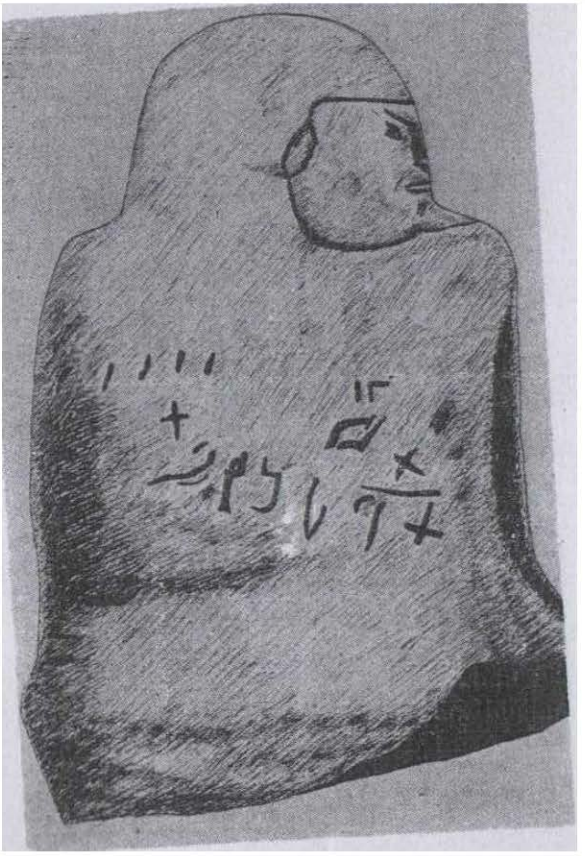

التصوير رقم (57)

عثر على هذا التمثال في سيناء نقشت عليه كتابة في شبه أحرف تعد أقدم كتابة توصل بين الهيروغليفية والأبجدية وقد حدد العلماء في أحدث تحقيق تاريخها بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد عن كتاب " قصة التوراة " ص 109.

ويعلل الخبراء كيفية نشوء فكرة الأخذ بالأحرف بدلا من الصور هو أن الكنعانيين الذين كانوا يعملون في مناجم طور سيناء اهتدوا إلى التدوين بالحروف الأبجدية بأن احتزلوا الكتابة الهيروغليفية التي تشير إلى المعانى ومقاطع الكلمات بصور وإشارات واكتفوا بالحروف الأولى من أسماء الصور فتكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الأبجدية الأولى، فأخذوا مثلا صورة رأس الثور عن الهيروغليفية، فأغفلوا لفظها في اللغة المصرية وأطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم الخاصة بهم فصارت

هذه العلامة الألف، وعلى هذا النمط عالجوا صورة البيت فأطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم واعتمدوا على الحرف الأول من اسمها وهي الباء وهكذا دواليك، فتكونت من هذه الأحرف الأبجدية وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفا وقد انتشرت هذه الأبجدية التي تعد أقدم أبجدية معروفة حتى الآن شرقا وشمالا وجنوبا، فصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن بعد أن تطورت في كل منها حسبما اقتضته طبيعة لغة أهله، فمنهم من حافظ على شكلها الأصلي كما وضعت في الأصل ومنهم من غير فيها وأضاف إليها أو نقس منها (انظر المرتسم رقم 13 جدول تطور الأبجديات). ويؤكد الدكتور ولفنسون: " أن الخط الكنعاني هو من صنع الكنعانيين واختراعهم وحدهم لأنه لا دليل مطلقا على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الأم " [1].

ومن أهم هذه الأبجديات التي اكتشفت الأبجدية اليغاريثية وقد عثر عليها سنة 1949 في " رأس الشمرة " (موضع يغاريث الفينيقية القديم)، ويرجع تاريخ هذه الأبجدية التي كتبت على لوح من الفخار إلى القرن الخامس عشر أو القرن الرابع قبل الميلاد. وقد عثر على ألواح كثيرة أخرى كتبت بهذه الأبجدية على الصلصال المفخور بالنار على الطريقة العراقية وقد دونت بالكتابة المسمارية مع أنها لا علاقة بالكتابة المسمارية العراقية. وقد ظهر من هذه الكتابات أن " الأبجدية اليغاريثية هذه كانت تتألف من اثنين وثلاثين حرفا وقد دونت من اليسار إلى اليمين على خلاف الأبجديات الأخرى مع أنه وجدت كتابات يغاريثية في فلسطين دونت من اليمين إلى اليسار وهذه الكتابات كلها دونت باللهجة الكنعانية القديمة ".

(1) ولفنسون، " تاريخ اللغات السامية "، ص 99.

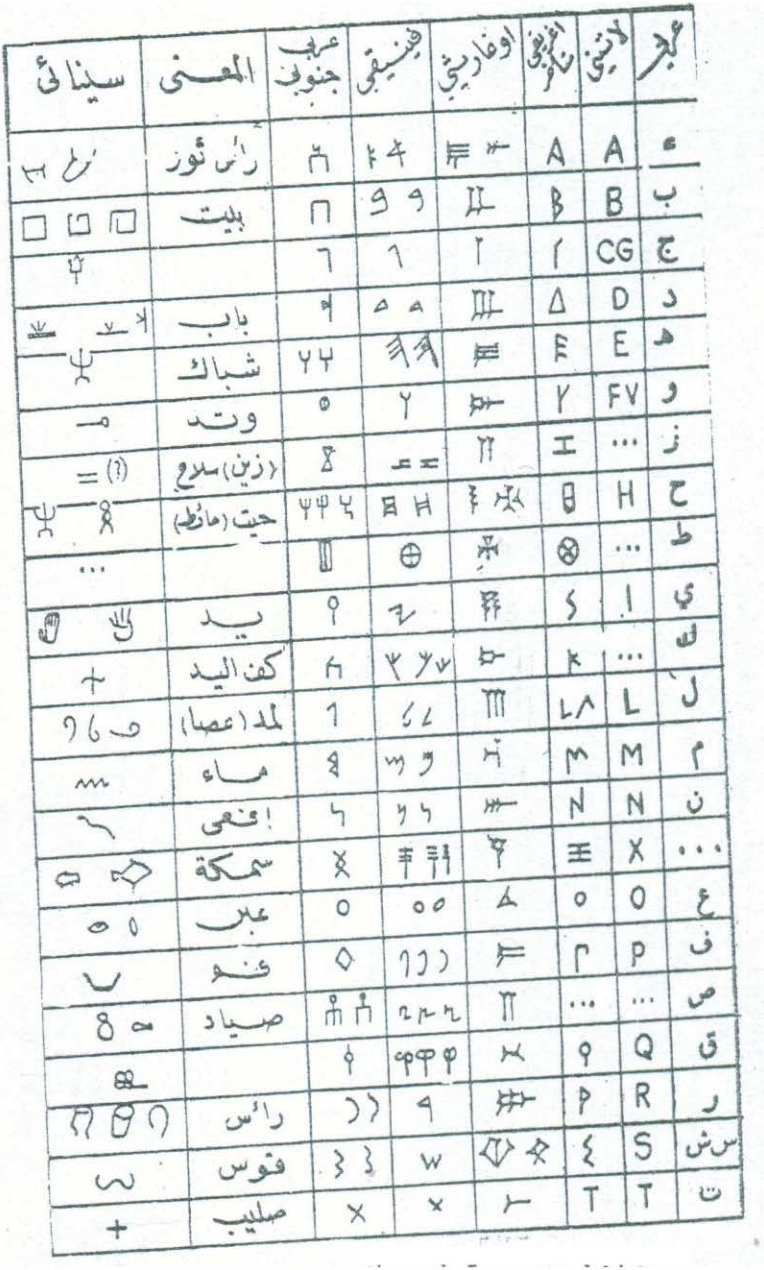

عبري	لاتيني	اغريقي قديم	اوغاريتي	فينيقي	عرب جنوب	المعنى	سينائي
ء	A	A				رأس ثور	
ب	B	B				بيت	
ج	CG						
د	D	Δ				باب	
هـ	E	E				شباك	
و	FV	Y				وتد	
ز	...	I				(زين) سلاح	=(?)
ح	H	B				حيث (حائط)	
ط	...	⊗					...
ي	I	ζ				يد	
ك	...	K				كف اليد	
ل	L	LA				لمد (عصا)	
م	M	M				ماء	
ن	N	N				(نحى)	
س	X	≡				سمكة	
ع	O	O				عين	
ف	P	Γ				فم	
ص	...	...				صياد	
ق	Q	Q					
ر	R	P				رأس	
ش س	S	ξ				قوس	
ت	T	T				صليب	

المرتسم رقم (13)

جدول تطور الأبجديات

وقد عثر في موضع " بيبلوس القديمة " (جبيل الحالية) وهى مدينة فينيقية أخرى تقع على مسافة 25 ميلا شمال مدينة بيروت، على كتابة مهمة نقشت على

تابوت حجرى لملك بيبلوس " أحيرام " وقد دونت بأبجدية مؤلفة من 22 حرفا من اليمين إلى اليسار، وقد أرجع تاريخ هذه الأبجدية إلى القرن الحادى عشر أو العاشر قبل الميلاد[1]، كما اكتشفت كتابات بالأبجدية الفينيقية في قبرص ومالطا وصقليا وساردينيا واليونان وشمال أفريقيا ومارسيليا وأسبانيا وشرق قليتية، وقد عثر على أبجدية متأخرة دونت فيها كتابة على مسلة تعود إلى عهد الملك " ميشع " ملك موآب (منتصف القرن التاسع قبل الميلاد) عرض فيها انتصاراته على ملك بهورام ملك إسرائيل (852 - 841 ق.م) [2].

وفى وصف أدبى رائع لتطور الأبجدية وإثبات أصلها الكنعانى العربى، يقول العقاد: " وأيا كان قول المؤرخين والرواة فهذه المسألة - مسألة الأبجدية - من المسائل التي لا حاجة بها إلى التاريخ والرواية. لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية، سواء كانت فينيقية أو أرامية أو يمنية من الجنوب، فالأبجدية تسمى عند اليونان " ألفا بيتا " وتبدأ بالألف والباء والتاء، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربى في العصر الحاضر على وجه التقريب. وليس لأسماء الحروف معان مفهومة في اللغة اليونانية، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العبرية العصرية، فضلا عن اللهجات العربية الغابرة، وأقرب هذه الحروف إلى المعانى العربية الشائعة في أيامنا حرف الباء من بيت، وحرف الجيم من جمل، وحرف العين من عين، وحرف الفاء من فم، وحرف الكاف من كف، وحرف الميم من ماء، وحرف الياء من يد. وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما يرى في شكل البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين وشكل الفم، وغيرها من الأشكال، وإذا رجعنا إلى نطق أسماء الحروف كما شاعت أو استعمالها في البلاد العربى تبينت من العلاقة بين أشكالها ومعانيها جميعها بغير استثناء حرف واحد من الحروف. فكلها أوائل كلمات مفهومة من بقايا الكتابة التصويرية التي ترسم الشكل كله وتأخذ من الكلمة حرفها الأول عند الكتابة بالحروف " [3].

(1) Diringer, "Writing", P. 131.

(2) (2 مل، 3: 1 - 27).

(3) " الثقافة العربية "، ص 29.

التصوير رقم (58)

لوح من ألواح رأس الشمرا ويمثل كتابة فينيقية بالأبجدية المسمارية ترجع إلى القرن 14 ق.م
(عن مارتسون " التوراة صحيحة "، ص 21)

يتضح مما تقدم أن أقدم كتابة بأقدم حروف أبجدية معروفة حتى الآن هى الكتابة الكنعانية السينائية القديمة، وقد قسم علماء اللغات الأبجدية التي تفرعت من الكنعانية القديمة إلى مجموعتين رئيسيتين، المجموعة السامية الشمالية والمجموعة السينائية العتيقة، وقد تفرع من المجموعة الأولى الكنعانية وفروعها الفينيقية والعبرية القديمة والقرطاجية والليبية والأرامية وفروعها النبطية والعبرية المتأخرة المعروفة بالمربع والسينائية المتأخرة والعربية وغيرها، أما المجموعة الثانية أى السينائية العتيقة فقد تفرعت منها السامية الجنوبية والسبئية والأثيوبية وغيرها (انظر المرتسم رقم 14).

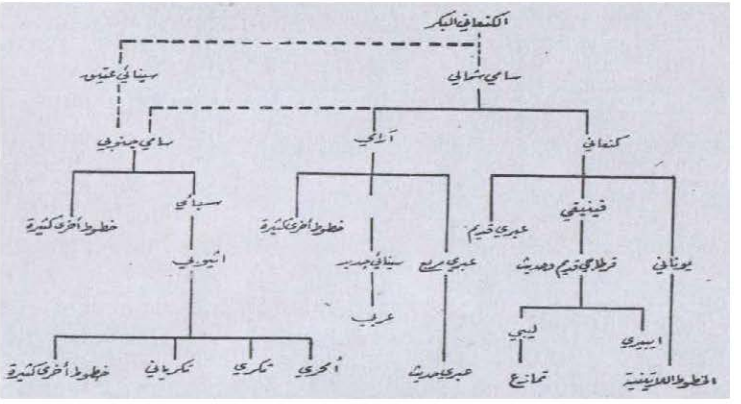

المرتسم رقم (14)

تقسيمات تفرعات الخط الكنعانى القديم

نستدل من كل ذلك على أن الجزيرة العربية لعبت أكبر دور في تطوير الثقافة العالمية، فهى كما ثبت مهد الكتابة الأبجدية التي أظهرها الكنعانيون لأول مرة في طور سيناء وفى جنوبى فلسطين كما تقدم شرحه، وبعد أن تنقلت في أرجاء الجزيرة وأطرافها تطورت إلى عدة أبجديات ثم عادت فاستقرت في قلب الجزيرة في شكلها الأخير (عربية القرآن الكريم) المأخوذة عن النبطية المتأخرة، كما يتضح أيضا أن الكتابة العبرية لم يكن لها أى دور لا من قريب ولا من بعيد في نشوء الأبجدية وتطورها، وهى لم تتعد كونها أحد الفروع التي اقتبست أبجدياتها من الأبجدية الكنعانية العربية الأصلية [1].

(1) أن المراجع عن نشوء الأبجدية وتطورها كثيرة، وقد اعتمدنا في عرض هذا الموجز على أحدث المصادر التي تتناول أحدث الاكتشافات، منها كتابا الدكتور حتي " سورية " و " لبنان " وكتاب الدكتور جواد علي " العرب قبل الإسلام "، وخاصة كتاب دايرنجر " الكتابة "، وفيما يلي مجموعة من المراجع في الموضوع:

B.F. G Atkinson & J.Whatmough, "Alphabet", Enc, Brit, 1965, Vol, I, pp. 662 - 669; H. Bauer. "Zur Entzifferrung der neuntdeckten Sinaischrift", 1918; E. Clodd, "The Story of the Alphabet"; M. Cohen, "Lagrande invention de l'ecriture", 1958; F. M. Jr, Cross, "The Evolution of the Proto-Canaanite Alphabet", Amer. Sch of Oriental Research Bulletin, 134 : 15 - 24 (April 1954); D.Diringer, "The Alphabet", 1948; "The Story of the Aleph Beth", 1958; A.H. Gardiner, "The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet", Journal of Egyptian Archaology, 3: 1 ff. 1916; I. I. G.elb, "A Study of Wriniting", 1952; L.G. Gray, "Introduction to Semitic Comparative Linguistics", 1934; W. Loslaw, "Semitic Languages", Ene. Brit., 1965, Vol, 20, pp. 314 - 317; W. Marcais & M, Cohen, "Precis de linguistique semitique", 1910; Sir W.F. Petrie, "The Formation of the Alphabet", 1912; M. Sprengling, "The Alphabet: Its Rise and Deveiopment form the Sinai Insoriptions", The Universal Jewish Enc., I, p. 198; H, Torczyner, "Tur-Simai", N.S. 1950 The Jewish Quarterly Review, 83 - 109, 159 - 179.

وأخيرا نختتم الكلام على نشوء الأبجدية وصلتها بالعرب بتعليق الأستاذ مرجليوث إذ يقول: " يرد على الخاطر سؤال عن أسماء المواقع التي تظهر على خريطة اليونان كـ (عسكرا) أى المعسكر، وفندس، أى الجبل من الفند وهو الجبل العظيم باللغة العربية، ولاريسا، أى العريش أو الخيمة، إلى أمثال هذه الأسماء التي تشبه أسماء المواقع في الأندلس بعد الفتح الإسلامى، فيبادر إلينا السؤال: " فلا تشير هذه الأسماء إلى حضارة عربية عريقة وصلت إلى اليونان ومعها حروف الأبجدية قبل أن يصل إليها الفينيقيون بحروف تخالفها " [1].

17 ـ عالم عربى واحد تعززه وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء:

والآن بعد عرضنا صورة إجمالية للأحداث التي شهدتها البلاد العربية في فجر التاريخ والتى كان أبرز حدث فيها هجرات أهل جزيرة العرب ونشرهم الحضارة السامية في أرجائها، فلنلق نظرة على الوضع الذي كانت عليه بلاد الشرق الأدنى وهى تسبح في بحر الألف الثالثة قبل الميلاد فماذا نرى؟.. عالما واسعا يؤلف فراغا شاسعا من الصحارى تحده الحضارة المستقرة على ضفاف وادى النيل من جهة الغرب وحضارة وادى الرافدين في جنوبى العراق من الجهة الشرقية: حضارتان فعدتهما نعم الحياة بما أغدقته عليهما من أرض خصبة ومياه عذبة يقف بينما شعب تائه في صحرائه حائر في أمره في وجه الجفاف الذي صار يهدده في صميم حياته بعد أن حرمته الطبيعة من مصدر وجوده، وهو متعطش ينشد حياة جديدة في وطن جديد يسد فيه حاجاته للقمة العيش، فكان عليه أن يحارب الطبيعة ويشق طريقه عبر البوادى القاحلة إلى الحياة التي كان ينشدها، وهو واثق بوحى الغريزة من أجل الحياة بأن ما وراء هذا البحر من الرمال عالما غير عالمه تتوفر فيه وسائل الخلاص مما هو عليه من مصير يضمر بين طياته هلاكا حتميا، فقطع الصحارى كما قطع كولمبس البحار ليكتشف عالمه الجديد في أواخر القرن الخامس عشر بعد الميلاد حتى وجد الشعب ضالته في وادى الأردن وتخوم وادى النيل في جهة الغرب، ووادى الرافدين في جهة الشرق، فأخذت الحشود تتوافد على هذا العالم الجديد على موجات متتابعة كما توافد أهل أوربا على أمريكا في منتصف القرن السابع عشر بعد الميلاد فشمر هؤلاء الأشاوس قاهرو الصحارى عن سواعدهم وأخذوا يبنون حياة جديدة في عالمهم الجديد، مستغلين الزراعة والتجارة وتربية المواشى في بناء عالمهم

(1) Margoliouth, "Relations between Arabs and Israeliters", p. 11.

الجديد، فتمكنوا من وضع أسس أعظم حضارة عرفها تاريخ الإنسان القديم.

وتذكرنا هجرات سكان الجزيرة إلى الهلال الخصيب بهجرات النورمان المتوالية من أعالى أوربا نحو جنوب القارة الأوروبية وشرقها في القرن الثامن بعد الميلاد وفيما بعده وتوغلهم في روسيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا حيث طبعوا بلاد أوروبا بطابعهم الخاص الذي لا يزال إلى يومنا موجودا، مع الفارق أن النورمان انحدروا من الشمال إلى الشرق والجنوب والغرب في حين أن سكان الجزيرة صعدوا شمالا وشرقا نحو الهلال الخصيب في آسيا الغربية.

وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء تضم الجزيرة العربية (الأم) وأبناءها في البلاد المهاجر إليها (وادى الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين إلى مصر السفلى) وهو عالم متصل مفتوح السبل لأهله، مرتبط بعضه ببعض بوشائج الأصل السامى العربى، قائم بذاته، يتكلم أهل لغة واحدة،هى اللغة العربية الأم: منهم أهل السواحل خبروا البحار، ومنهم أهل الصحارى (أهل الوبر) احتضنوا البوادى، ومنهم أهل المدن والقرى (أهل المدر) احترفوا الزراعة والتجارة، ومنهم الرعاة أصحاب المواشى، فقد صهرتهم الوحدة الجغرافية في مصير واحد مشترك، فتعاونوا على الرغم من اختلاف نزعاتهم، على وضع أسس الحضارة السامية الكبرى.

وقد شمل هذا العالم حضارة ساحل البحر الأحمر والخليج العربى ثم حضارة ساحل البحر المتوسط، فالحضارة الصحراوية البدوية، ثم الحضارات النهرية: حضارة وادى الرافدين، وحضارة وادى النيل، وحضارة وادى الأردن.

وغطى هذا العالم المنطقة الواسعة التي يحدها جبل حمرين والخليج العربى وخليج عمان من الشرق، وبحر العرب وخليج عدن من الجنوب، والبحر الأحمر والبحر المتوسط من الغرب، وجبال طوروس من الشمال. وقد سيطر هذا العالم بجماله على طرق المواصلات الصحراوية، كما سيطر بسفنه على طرق المواصلات البحرية. وكان كل ذلك قبل أن يشهد الشرق الأدنى غزوات الأقوام الآرية غير السامية، وقبل أن يظهر أتباع موسى على مسرح الأحداث بزهاء ألفى عام.

وكان وادى الرافدين امتدادا لجزيرة العرب، بل كان جزءا لا يتجزأ منها، فكان الموئل الرئيسى الذي أسست على ضفافه المستوطنات الزراعية، فأسس

الأكديون والعموريون والبابليون والأراميون وكلهم ساميون أصلهم من جزيرة العرب، أولى مستوطناتهم فيه، ومن الأمثال المعروفة في بادية العراق قولهم: " نجـــــــــــــــــــد أم والعـــــــــــــــــــراق داية "، والمقصود بذلك ارتباط نجد بوادى الرافدين.

وكان النظام القبلى الذي يستند إلى العادات والعرف والتقاليد المتوارثة والذى يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد في هذا المجتمع الواحد، إذ كانت تمتد سلطة رؤساء القبائل إلى جميع توابعها: بطونها وأفخاذها، أينما وجدت، وكانت لهم أنظمة خاصة بالحروب والغزوات التي تنشب فيما بينهم، يتداولها ويتقبلها الجميع عن طيب خاطر.

والدليل على أن بلاد الشرق الأدنى كلها كانت تعرف كوحدة قومية واحدة ترجع إلى أصل واحد، الأصل السامى العربى " أن تسمية (أراميين) كانت تشمل جميع القبائل الساكنة قديما في البلاد الفسيحة الواسعة المحدودة ببلاد الفرس شرقا والبحر المتوسط غربا وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالا وحدود جزيرة العرب جنوبا كانت قاطبة معروفة ببنى آرام والأراميين " [1]. والأراميون ومعهم أهل الشام الذين كانوا يسمون أنفسهم بالأدوميين عرفهم الأشوريون باسم " العربيى " أى العربى وقد سبقت الإشارة إلى ذلك [2]. ويؤكد الأستاذ موسكاتى مؤيدا الوحدة العربية المتماسكة في تلك العصور فيقول: " إن المناطق الثلاث - الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين [3]. وبلاد ما بين النهرين - كلها تكون وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء كانت في تلك الأزمان مسرحا رئيسيا للنشاط البشرى وأن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية لعبوا الدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم. وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث أن تلك صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى... وأن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية ". ثم يضيف إلى ذلك قوله: " والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة مكشوفة أمام أهل جزيرة

(1) " دليل الراغبين في لغة الأراميين "، للقس منا الكلدانى، ص 7.

(2) انظر ما تقدم في الفصل الأول " هجرة الأراميين إلى سورية والعراق "..

(3) يقصد العلماء عندما يتحدثون عن سورية في التاريخ مفهومها الواسع الذي يشمل - عدا سورية - فلسطين ولبنان وفينيقية وسيناء.

العرب بحيث كان يسهل عليهم التوغل في جميع أنحائها من جميع الجهات، وهكذا فقد انصبت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مغريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش " [1].

18 ـ فلسطين عربية المنشأ في حضارتها وقوميتها وثقافتها:

يتضح مما تقدم من عرض للأحداث التي دارت حول الشرق الأدنى في تاريخه القديم أن الفترة التي عاشتها فلسطين في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد هى فترة عربية بحتة في قوميتها وثقافتها ولغتها، ولا توجد لعصر موسى واليهود الذي يأتى بعد أكثر من ألفى سنة من حياة فلسطين العربية هذه أية صلة بهذا العصر القديم كما سيأتى شرحه مفصلا في الفصول التالية. إن فلسطين نشأت عربية منذ أكثر من خمسة آلاف عام، سكنها أول من سكنها الكنعانيون العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية، وذلك قبل ظهور موسى بأكثر من ألفى عام كما تقدم. والكنعانيون - العرب - هم سكانها الأصليون الشرعيون بدليل احتفاظهم حتى يومنا هذا باسم بلادهم الأصلى " فلسطين " التي عرفت به منذ هجرة " الفلسطينيين " إلى سواحل أرض فلسطين واندمجوا مع الكنعانيين [2]. وهذه (أورشليم) المدينة المقدسة مدينة كنعانية عربية المنشأ في تسميتها وقوميتها " [3].

أفلا يحق لنا بعد كل ما تقدم أن نسأل أولئك الذين يتمسكون بإرجاع تاريخ عصر موسى واليهود إلى عصور فلسطين القديمة: أين دور اليهود من أحداث تلك العصور؟، أين حضارتهم؟، أين ثقافتهم؟... أين الدليل على مساهمتهم بحضارة الكنعانيين والعموريين والأراميين والأكديين والبابليين؟، أين كانوا حين نزح هؤلاء من الجزيرة العربية إلى بلاد الهلال الخصيب وأسسوا مستوطناتهم وحضاراتهم فيها؟، وكيف نسمح لأنفسنا أن نحشر هذه الجماعة في إحداث تلك الفترة من تاريخ فلسطين من غير أن يكون لهم وجود فيها؟... هذه أسئلة يفرضها البحث في تاريخ فلسطين القديم ونترك الإجابة عليها إلى أولئك الذين لا يزالون

---

(1) S. Moscati, "Ancient Semitic Civilizations", London, 1957, PP. 13 =K 21 K 108.

=الدكتور محمود الغول، " صلاة عرب الجزيرة بخارجها فيما قبل الإسلام "، العربى 59 (1963)، 58 - 62.

(2) انظر ما تقدم عن هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول.

(3) انظر الملحق الأول " أورشليم في أقدم عهودها "..

يصرون على حشد اليهود في إحداث لم يكن لهم وجود فيها لا من قريب ولا من بعيد.

19 ـ أسماء مدن فلسطين كنعانية عربية الأصل:

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن معظم المدن والقرى والمناطق الفلسطينية التي اعتبرها اليهود خاصة بهم وتحدثوا عنها وكأنها مدنهم القديمة لمجرد ورد ذكرها في التوراة نمت وازدهرت قبل عهد موسى واليهود بعشرات من القرون، وقد حافظت على أسمائها الكنعانية القديمة حتى هذا اليوم، ويرجع بعضها حسب تقدير العلماء إلى ما قبل سبعة آلاف عام، فبلدة " أريحا " مثلا أرجع الخبراء تاريخها إلى سنة 5000 ق.م ويعدها البعض أقدم مدينة في العالم مازالت قائمة حتى اليوم [1]، وقد سبقت الإشارة إلى تسميتها وفى قوميتها وفى ثقافتها، وكلمة " صهيون " كلمة كنعانية الأصل كانت تطلق على رابية من أورشليم كان قد تحصن بها اليبوسيين أبناء عمومة الكنعانيين العرب سكان أورشليم الأصليون وحتى إسرائيل كانت اسم موضع في فلسطين يرجع إلى ما قبل عصر موسى واليهود.

وقد عثر على جدران هيكل بلدة طيبة المصرية على جداول بأسماء 118 مدينة كنعانية يعتقد أنها المدن التي افتتحها تحوطمس الثالث (1503 - 1449 ق.م) [2]، وهذا يعتبر أقدم ذكر للمدن الكنعانية إذا استثنينا ذكر بعضها في وصف حملات الفراعنة الأقدمين على بلاد كنعان التي ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد.

ويحاول الصهيونيون اليوم إحياء الأسماء القديمة في فلسطين المحتلة باعتبارها أسماء عبرية (يهودية) والحقيقة هى أن هذه الأسماء كلها ومن ضمنها أورشليم والقدس أسماء كنعانية عربية الأصل حتى كلمة صهيون وإسرائيل اللتين اتخذوهما شعارا لتصميمهم العدائى ضد أهل فلسطين العربية هما كلمتان كنعانيتان عربيتا الأصل كما تقدم ولم يستطع اليهود تغيير الأسماء، لأنه لم تكن لديهم لغة خاصة بهم في تلك العصور لتحويلها إليها. فاللغة التي اقتبسوها في

(1) W.Keller, "The Bioble as History", p. 159; J.Garstang & J.F.E.Garstang. The Story of Jericho", 1948, K.Kenyon, "Earlest Jericho", Antiquity, Vol. 33, 1959, pp. 5 - 9.

(2) انظر ما تقدم عن هجرة الكنعانيين في الفصل الأول.

فلسطين هى الكنعانية لغة سكان البلاد الأصليين ولم تكن اللهجة العبرية (بمعنى اليهودية) المأخوذة من الأرامية قد تكونت بعد.

وهنا لابد من توضيح نقطة مهمة فيما يخص دور العبرية في تطور الثقافة الفلسطينية، وعلينا قبل كل شئ أن نفرق بين اللغة وبين الكتابة أو الخط: فالرأى المتفق عليه هو أنه ليس لليهود أية لغة أو لهجة خاصة بهم، لأن الموسويين عندما جاءوا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أخذوا بالثقافة الكنعانية بما فيها اللغة الكنعانية والشعائر الدينية - الثقافة التي كانت قد نمت وازدخرت على أيدى الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. ثم بعد أن انتشرت الأرامية، وهى من أصل عربى مثل الكنعانية، اقتبسها اليهود مع بقية الأقوام، وباللهجة المعروفة بأرامية التوراة دونت التوراة في الأسر في بابل وفى عهد الأخمينيين أو بقيت هذه اللهجة مقتصرة على الكتب المقدسة. أما الكتابات العبرية القديمة فقد نمت من مصدرين، من الكتابة السامرية وهى من الأبجديات التي تفرعت من الأبجدية السينائية ولا يزال السامريون يستعملونها حتى هذا اليوم، ثم من الكتابة التي ظهرت على سكة النقود التي ترجع إلى العهد المكابى، وإلى جانب ذلك اتخذ اليهود الحرف المسمى بالحرف المربع الذي دونت به التوراة، وهو مقتبس من الأبجدية الأرامية ولا يزال يستعمل في الكتابة العبرية (اليهودية الحديثة) [1].

يتضح مما تقدم أن اليهود أخذوا ولم يسهموا في شئ في تقدم الحضارة، وليس لهم أى تراث قومى خاص بهم، فاللهجة التي دونوا بها التوراة والمقتبسة من الأرامية لم تكن من اللغات الحية، إذ بقيت مقتصرة على الكتب المقدسة، وليس ثمة أى دليل على أنها انتشرت كلغة تخاطب حتى بين اليهود أنفسهم، لقد أخذ اليهود بلغات الأقطار التي استقروا فيها واستعملوا الحروف العبرية في الكتابة في أكثر الأحيان، لذلك فإن ما ورد من أسماء وأماكن فلسطينية في التوراة هو من أصل كنعانى عربى ولا يمكن بأى حال من الأحوال اعتبارها أسماء عبرية بمعنى يهودية لأن اللهجة التي اتخذها اليهود في كتابة توراتهم، أى أرامية التوراة لم تكن قد تكونت بعد. فالثقافة الكنعانية بما فيها الديانة الكنعانية وشعائرها بقيت هى السائدة في البلاد حتى في زمن داود وسليمان وفى زمن الملوك والانقسام.

(1) D. Diringer, "Writing", P. 128.

* * *